وجدانيات

أسامة أنور عكاشة



أوراق مسافر

أتمنى لكم أمتع الأوقات مع

منتديات ليلاس الثقافية

إهداء

إلى... ... ...

الوهم الذى كان يوما حقيقة...

.. والجرح الذى كان يوما... وردة...

.. والألم الذى كان يوماً... ترنيمة حلم...

أسامة أنور عكاشة

تقديم

فى ربيع عام ١٩٩٢ . . . طلب منى الصحفى النابه والصديق «محمود سعد» وكان يدير مكتب إحدى المجلات العربية فى القاهرة أن أكتب صفحة ثابتة ألتقى فيها مع قراء هذه المجلة كل أسبوع .

وفاجأنى الطلب . . .

صحيح أننى لم أكن حديث العهد بكتابة المقال الصحفى . . . ولكن . . . كنت أكتبه أحيانا عندما أحس بحاجتى إلى التعبير عن رأيى فى قضية ما من القضايا المثارة على الساحة . . . خاصة إذا كان هذا الرأى لايمكن فنيا أو عمليا التعبير عنه فى دراما أكتبها . . .

هذا إلى جانب أننى لم أفكر لحظة . . . ولم يدر بخلدى . . . أن أمارس الكتابة المنتظمة فى أى صحيفة . . . وكان أن أحسست أولاً باستحالة الطلب وبدأت أمهد للاعتذار . . . ولكن «محمود سعد» صحفى شاطر . . . استطاع أن يستدرجنى ويهون علىّ الأمر حتى كتبت . . .

قبلها واجهنى سؤال : ماذا أكتب ؟ . . .

لم يكن مطلوبا أن أكتب المقال السياسى . . لأن المجلة بعيدة تماماً عن السياسة . . .

ولم أرد أنا أن أكتب فى الفن . . . باعتبار أن انتسابى إليه قد يؤدى إلى حساسيات لا لزوم لها . . . واقترح علىّ محمود . . . أن أكتب : خواطر . . أو شطحات فى الفكر والحياة والعاطفة . . . فكان أن فتح لى الباب وحل الإشكال . . .

قررت أن أكتب فى الرومانسيات . . . أترك نفسى لتيار المشاعر يحملنى فى سفرة يومية عبر أجواء اللاشعور والمخبوء . . . وما انطوت عليه الجوانح . . . وأردت أن أغمس سن القلم فى شغاف القلب . . . يستمد مداده من الجراح الحية . . . ونسيج الذكريات وأحلام اليقظة وأطلال الآمال الكسيرة وإشراقات الأمانى الوليدة . . . مقدراً أننى فى حقيقة الأمر لا أكتب تهويمات تتطاير فى الهواء كدخان . . . وإنما أكتب حقائق نفسية تبدو شديدة الخصوصية ولكنها فى واقع الأمر تلمس أوتار القلوب لدى كل قارئ . . .

وتوالت مقالاتى فى الصفحة الأخيرة التى خصصت لأوراق المسافر طوال ما يزيد عن ثلاث سنوات . . . دهشت لها قبل أن يدهش الآخرون . . .

لم أتصور قبلاً أن لدىّ كل هذا المخزون . . . وأن بداخلى هذا الشاعر وإن لم يك ما يكتبه شعراً . . . حتى أننى أنكرت نفسى حين عكفت على مراجعة المقالات لإصدارها فى كتاب . . .

وحدثنى الأصدقاء فقال قائلهم . . .

ليس هذا هو أسامة أنور عكاشة الذى نعرف . . . وقلت مسايرا : وليس هو الذى أعرفه أنا أيضاً . . .

ولكننى حين دققت النظر وأمعنت التفكير . . . وجدت أن الكاتب ليس هو نفسه فى كل مرة يكتب . . . وإذا كانت دراما التليفزيون تحتم أن يكون كاتبها لصيقا بالواقع وأن يوظف كل إمكاناته وإبداعه لخدمة هذا الواقع بتفسيره والتعبير عنه بعيداً عن مغامرات التجريب ومخاطبة « الخاصة » . . . فإن للكاتب ـ الموهوب جوانب إبداعية أخرى يعبر فيها عن ذاته وعن هواجسه وأحلامه لاسيما إذا اقتربت آليات

الإبداع عنده وتلامست مع روح «الشعر» . . .وأبادر فأقول أن ماسيقرأه المتلقى عبر هذا الكتاب وما يكون من « وجدانيات » ليس شعراً ولا هو محاولة لكتابة «قصيدة النثر » أو الشعر الحر أو غيرها مما حفلت به الساحة الأدبية من أشكال التحايل أو التجديد أو أياً كانت المسميات . . .

فقد أستطيع أن أنسب هذه « الوجدانيات » لما اصطلح على تسميته « بالنثر الفنى » والحق أقول أننى لم أعن حين كتبتها بوضعها أو بتصنيفها ضمن « شكل » أدبى بعينه ولا يعنينى الآن أن يعدها ناقد ما مجرد « خواطر » مرسلة أو يصنفها آخر ضمن هذا الجنس أو ذاك من أجناس الأدب . . .

ولعلى لا أنهى هذه المقدمة دون أن أعبر عن امتنانى العميق لأصحاب الفضل فى صدور هذه الوجدانيات . . . للصديق محمود سعد . . . وهو من أصر على أن أكتبها وصبر معى وعلىّ طوال سنوات ثلاث . . . ولولاه ما كانت أصلاً ! . .

ويبقى أن أتوجه بالشكر للأساتذة أصحاب دار «نهضة مصر» للطباعة والنشر لما أبدوه من حماس كريم . . . وما بذلوه من جهد لإخراج هذا الكتاب على أفضل صورة . . .

ولك أيها القارئ العزيز شكرى الخاص إذا قرأت فاستمتعت ورأيت أنى لم أخلف حسن ظنك بى . . .

ولك اعتذارى إذا وجدت فى سطورى ما يزعجك أو يضيع وقتك . . . وعلى الله قصد السبيل . . . .

أسامة أنور عكاشة

قــــدر!

أن نلتقى الآن ! . . قدر!

أن تتقابل أقدامنا على جسر لم نعبره من قبل! وبيننا مسافات من أميال وسنوات . . . أيضا قدراً

غريبان اجتمعا فى رحلة ليل لم يقطعها قطار ولم ينتبه لها الزمن ولم يتهيأ لها المكان . . . لكنها قدر . . .

طرفة عين لا أكثر! لم يعد العالم بعدها كما تعودت أن يكون!

يشتبك الطريق! يتقاطع . . نتواجه فى المفترق!

من سنوات طوال وكل منا قد حُدد اتجاهه واستسلم لأسهم تشير له آمرة «الدخول اجبارى . . . والسير فى هذا الاتجاه لا مفرا» . . . وأطعت قدرى . . . سرت دربى . . . وألقيت عصاى على كاهلى . . . وشرّعت عيناى فى أفق لاتعبره شمس النهار ولا تتألق فى ليله نجمة هادية! ولم تتكاثف فى أرجائه سحب حبلى

بمطر قريب . . . جف حلقى . . وتشقق لسانى . . ودميت أقدامى!
ولم يبق لى من زاد إلا لقيمات الصبر المرة ألوكها مع الأيام . . حجراً يدور فى رحى لاتطحن غير التراب . . .

وآه من طعم التراب! . . .

لعلك قد عرفته وأنت بعدما زلت فى الربع الأول من دربك الطويل . . .

رأيت الطعم لحا فى نظرة يأس تبرق فى عينيك كماسة سوداء . . . قرأت سطور القصة . . . كانت الكلمات مألوفة . . . كأنى كتبت بها قصتى! . . .

يوماً قالت لى العرافة . . .

ـ ستلقاك على نفس الطريق! وليس فى نفس الموعد! . .

أدركت الآن فقط أن اللعبة كانت الزمن ! . .

لم تشأ الأقدار أن يلتقى الغريبان فى الزمن الصحيح! لعبت بعقارب الساعات

. . . أوهمتنا بأن السنوات الطوال تساوى الأيام . . . وأن الأيام تساوى اللحظة . . . وصدقنا! تحرك كل إلى صاحبه وكأن كل الدروب مغلقة إلا درب اللقاء . . .

التقينا . . . ونحن نعرف صاحب اللعبة! ونعرف لعبته . . . ونعرف كيف ينسج خيوطه على نول الصدفة . . ويلونها بألوانه العابثة ليصنع منها فى النهاية ثوبا مزدوج الوجه . . .

ـ الحب يا ولدى كما تراه . . . فارتدى ثوبك على الوجه الذى تحب . . .

ـ ولكنى لا أرى شيئاً فقد عصبت عينىّ ! . . .

ـ وهل من عاشق يرى أقداره ويختار؟

وحملت إليك السؤال وأنا أعلم أنك مثلى لاتعرفين الجواب . . .

وعصفت بأعماقى رياح التمرد! أحسست بالمهانة . . . ورفضت الاستلاب . . .

من يفرض السؤال . . . يفرض الجواب . .

إذاً فلنضع سؤالنا . . . ولنلق بأسئلته بين حجرى الوحى ليطحنها مع التراب . . .

. . . ولنبدأ الطقوس . . .

انظرى فى عينىّ . . . واقرأى الحروف . . .

ومن عينيك أتلقى الكلمات . . . .

إذا أردنا سنفعل . . .

لن نرتدى ثوبه . . .

فقد أردنا ! . . وحين أردنا صنعنا نولنا الصغير . . . وغزلنا عليه الكلمات . . خيطاً لامعاً من شمس الخريف . . . يفسد لعبته الزمنية . . .

فيكون . . ربما يكون هو اللاعب الجديد . . . ربما كان قدرا!

كلمات من يوميات قديمة !

أعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فى من شحمه ورم

«أبو الطيب المتنبى»

خريف

تتراكض سحب تشرين . . تتسابق . . تلتحم . . تصبح الشمس أسيرة . . . وتسرى فى الأطراف برودة الزمن القادم . . .

والزمن القادم يا أختاه يرتدى مسوح الفارس المهزوم . . . يمتطى ظهر جواد أثخنته الجراح . . . تتدلى من سرجه المهترئ قربتا ماء فارغتين إلا من قطرات الثمالة . . يجرجر على الأرض سيفاً صدئاً ويشرع أعلاه رمحه المكسور . . .

. . . الزمن القادم يا أختاه طفل مقرور أدركه المشيب قبل الأوان فلم يعرف الصبا ولم يعش لحظة شباب . . . ولد عارياً فتغطى بوريقات أشجار زاوية ولملم أطرافه على الطوى . . .

الزمن القادم يا أختاه . . . شحاذ يجلس فى دروب المدينة العتيقة يعزف على قيثار خرب مقطوع الأوتار ألحانا منسية ويردد أغنيات الحب القديمة التى لاتطرب أحداً . . .

الزمن القادم يا أختاه مسافر أضاع بوصلته . . . وغمت عليه الشمس والنجوم . . . وصمتت دونه الرياح فوقف عند المفترق يجيل بصره بين الدروب المتشابكة والإشارات الخادعة . . .

درب الماضى هو درب المستقبل . . وعليه لافتة تشير إلى السير فى اتجاه واحد . . . لا عودة . . . لا رجوع . . .

وعند قمة المنحنى ينتهى الدرب . . . ولاتبقى إلا خطوة نحو الهاوية . . .

. . . ودرب الانتظار تعلوه لافتة «ممنوع الانتظار» . . .

ودرب السلامة تعلوه إشارة الخطر . . .

ودرب الندامة تغلقه الأشواك وتربض فى منحنياته وحوش الرهبة . . . ولم يبق هناك إلا درب وحيد . . . بلا لافتة . . . ولكن زمننا القادم يعرف . . هو درب دائنى . . .

أيها الداخل . . . لن يكون هناك خروج . . .

. . . .

صوح الزهر وجف العبير . . .

وتساقطت قطرات الحزن على الخدود . . .

وقريباً تأتى الثلوج . . .

فلنبحث عن رداء يا أختاه . . . ومظلة للمطر . . .

ولنملأ جنوبنا ببعض الزاد . . . لقيمات فقط . . . فالرحلة قصيرة . . أقصر من عمر فراشة . . .

أقصر من مدى خطوة . . .

زمننا القادم ينتظر عند المفترق . . . ويشير لنا كى نسرع . . . وعلينا أن نطيع . . فربما . . .

ربما فقط كان يعد لنا تحت معطفه الثقيل أعجوبة يفاجئنا بها . . . من يدرى؟

أما زلنا نقوى على الأمل . . .

مازلنا نحيا . . .

كلمات من دفتر قديم :

الذكاء عند بعضهم . . .

ليس أن تفهم الآخرين . . .

ولكن أن تمنعهم من فهمك !

موجه

خصلة شعر تحركها ريح نزقة . . . ترعشها كخفقة قلب . . تطويها وتبسطها كشراع ملاح تائه . . . تجثو بها على جبين بللورى . . تلثمه . . تهمس له . . تناجيه . . تشتعل تحت نار الغروب . . . تتوهج . . . تنثر حولها رزازاً من ألق ساحر . . .

. . . تولد من حضن الأفق . . .

تتهادى ملؤها كبرياء . . . وترفل فى ثوبها السماوى المتوج بإكليل وردى . . . تبدو كعروس إغريقية تتواثب على قمة الأوليمب . . .

كسراب تقبل ولاتصل . . تعد ولاتفى . . تغرى ولاتلبى . . .

أجلس على كثبان الشاطئ بكأسى الفارغ . . . وأنتظر فيض الرحيق . . .

بجوارى سلتى الخاوية . . . تنتظر كرمها الموعود . . .

لطالما استغرقتنا أحلام الدوالى . . . تتساقط حباتها بين شفتين تشققتا ظمأ واحترقتا فى موسم الجفاف . . .

لكنها قادمة . . .

ألمح بشاراتها زبداً يتفتت على الرمال . . . وأصدافاً مبللة تقفز بين أصابعى وتهمس فى أذنى بسر الرحلة الطويلة . . .

لطالما حاورت البحر . . . سمعنى كثيراً . . . وسمعته طويلاً . . . أخبرنى عن كل الأشياء وألقى بين يدى بكل أسراره . . . حكى لى عن عالمه المسحور . . . عن جنياته . . . وعرائس أعماقه . . . عن قصص المحبين . . . وحكايا العشاق وسفرات الراحلين . . . وأشواق التائهين . . .

صرنا أصدقاء فسألته عنها . . .

لم يجب البحر . . .

تحول إلى زجاج أصم تنعكس عليه أشباح رمادية . . .

سألت الرمال . . . خططت بأصبعى اسماً . . . وضعت تحته خطاً . . رسمت علامة الاستفهام . . توترت الرمال تبعثرت وانفلتت حباتها فى مسار العاصفة فانمحت الحروف . . . وانطمست علامة الاستفهام . . . ونسيت السؤال!

لكنها قادمة . . . هاهى تسرع نحوى . . فوارة صاخبة . . . كأنها تنادينى . . . تهتف باسمى . . .

سأخوض إليها عباب البحر . . . سأشرع ذراعى فى وجه

الإعصار . . . أفتح لها صدرى . . ألقى برأسى فى أحضانها . . تغمرنى . . . أغوص فى أعماقها أرفع رأسى . . . تلسع شمس الظهيرة عينى . . . تحرقهما ذرات الملح . . . أحتمى بها ولكنى لا أجدها . . .

كأنها لم تجئ . . . كأنها لم تكن . . .

وكأنى كدأبى كل مرة . . . أقبض على حفنة مياه تتسرب من بين أصابعى فأفتح كفى على الهباء . . .

أقلب كأسى . . أنظف سلتى . . . أنتظر الأخرى . . . .

هاهى تقبل من بعيد . . . وها أنا أجرى إليها . . .

لم يخبرنى أحد من قبل أن الأمواج تموت على حافة الشطئان .

كلمات من دفتر قديم :

انهم يقولون . . . ماذا يقولون؟

دعهم يقولون!

«مثل غربى»

شاهد

هبط من عربة الترام وقد أغلق قبضته على القطعة المعدنية بقوة هائلة حتى أحس أنه لو أراد أن يفتحها ثانية لما استطاع . .

كان العرق ينزف من كل مسامّه كقطرات الثلج . . ولم يجرؤ على النظر للخلف . . . رغم إحساسه بأن هناك تياراً من نار يلهب رأسه . . .

. . . عبر الطريق إلى الرصيف . . . فكر أن «يضعها» فى جيبه . . . لكن ذراعه شبه المشلول لم يطاوعه . . كان الخدر يختلط بالألم كلما حرك ذراعه . . وأحس لها «بملمس» جمرة تحرق لحم الكف . . ما الذى جعله يفعل هذا؟

لماذا استسلم لذلك الهاجس الشيطانى؟

. . . لقد كان وحده تقريبا فى عربة الترام . . . لم يكن هناك سواها . . تلك العجوز الموغلة فى القدم التى احتاج الأمر حين حل موعد هبوطها . . أن يتعاون مع محصل التذاكر حتى يمكنها النزول

فى المحطة بعد أن سبقها كلبها الضخم . وقد حدث الأمر فى هذه اللحظة بالذات . . . بعد أن اختفت العجوز وكلبها وسار الترام . . وارتد هو ليجلس مكانه . . . وهنا لمح القطعة . . على المقعد الذى كانت العجوز تحتله . . .

كان هناك شعاع من مصباح العربة ينعكس عليها . . لامعاً كنصل حاد . . . براقاً كإنذار . . . مختلجا كدعوة إغراء . . .

تظاهر برغبته فى تغيير مكانه . . . وأسرع إلى المقعد . . . تلفت حوله ليرى موقع المحصل . . . ولكنه كان قد انتحى ركنا وغرق فى النوم . . . وامتدت يده تلتقط القطعة . . .

حلية من الذهب الخالص تتوسطها قطعة من الياقوت الحقيقى . . . دسها فى جيبه وقلبه تتسارع دقاته فى عنف . . ولعابه يجف فى حلقه . .

. . . يا لله ! متى كان لصاً؟

سار والسؤال يدق فى رأسه موازيا دقات قدميه على أرض الشارع الخالى فى هدأة آخر الليل . . . .

كيف يعود بهذه القطعة إلى بيته؟ وماذا سيقول عنها لزوجته؟ اشتراها؟ من أين وهى تعرف جيدا أن ما معه يكفى بالكاد لشراء التبغ والعودة إلى المنزل . .

. . . أم يقول أنه وجدها فى الشارع؟ أم يقول الحقيقة .؟

تشابكت الأسئلة وأصابته بالدوار فى لحظة . . نفس اللحظة التى لمحه فيها . .

كان يسير موازياً له على الرصيف المقابل . . ربما كان يتبعه من البداية . . .

افترض أولاً أنها مجرد صدفة . . فأبطأ فى سيره . . ثم توقف . . ثم أسرع . . وفى كل حالة كان يفعل مثله . . وكأنه كان ظله . . . أحس بخوف مبهم يهاجمه . . فقرر أن يجرى . . . لديه فرصة . . فالمنزل قد اقترب . . . بعد تقاطعين لا أكثر . . .

جرى . . . فجرى الآخر . . . وهذه المرة لم يكن بموازاته وإنما كان خلفه . .

أحس باللهاث الوحشى . . . ثم غمغمة غاضبة . . . وخانته ساقاه . . فتوقف واستدار مرعوباً . . فوقف المطارد بدوره . .

كان لسانه يتدلى . . . وعيناه تبرقان بأمر صارم . . وأنيابه الحادة تنتصب فى وجهه مهددة منذرة . . . ماذا يريد . .! أجابته نبحة حادة غاضبة . . ونظرة من العينين الزجاجيين . . نحو قبضته . .

نظر إلى قبضته . . وتذكر! فلانت عضلاته وفتحها . .

نبحة أخرى جعلته يفهم . . .

رمى القطعة على الأرض . . . انقض عليها الكلب وقبض عليها بأنيابه . . . ثم أقفل يعدو مختفياً فى حلكة الطريقة . . .

أما هو . . فقد واصل طريقه . . وهو يتثاءب ويحلم بالسرير والنعاس .

كلمات من دفتر قديم :

أطعتِ فىّ عواذلاً فهجرتنى

وعصيت فيك وقد جهدن عواذلاً

«جميل بثينة»

حلم!

فى الغرب . . تهاوت شمس تشرين وانطفأت فى البحر . . .

. . . كنت قد انتهيت من قصتى . . . وفرغت من آخر حرف فيها . . . وألقيت على صديقى نظرة التساؤل الأخير . . .

تقطب حاجباه . . وشرد طويلاً . . . ثم همس :

ـ تعرف أن الحلم قصير . . .

ـ وأعرف أن العمر الراكض أقصر . . .

. . . وصمتنا . .

لم يعد هناك ما يقال . . . فرحلة الألف ميل لم تبدأ . . . لم تخط خطوتها الأولى . . . وبقى الطريق طويلاً . . . عسيراً . . . يلوح كأنه الأبد!

لم أسأل أحداً غير صديقي! . . وصديقى لم يعرف ماذا يقول . . . نهض . . وألقى سلاماً . . وتوارى . . ينفض العالم من

حولى . . . تلذعنى ريح الوحدة! أفزع للقلم وللأوراق . . أكتب . . أتكلم . . . أصرخ! أصنع من أضغاث الحلم رجالاً . . ونساء . . أطفالاً . . . تتقدم طفلة . . . الطفلة تمسك بأصابعها زهرة . . تغرسها فى قلب ينزف . . . يتقاطر حرفاً حرفاً على ورق أبيض . . تقرأها الطفلة . . . تهمس دامعة العينين . . .

ـ عمر الورد قصير . . . .

ـ والعمر الراكض أقصر . . . .

لثمت أوراقى المسطورة . . . أنبتت الأوراق قصيدة . . . غنتها الطفلة . . . لكن اللحن تهدج محزوناً . . وارتجفت أوتار المعزف . . . طلبت اسماً للمقطوعة :

«كم يبلغ عمر الأحزان؟» . . .

قالت : ليلة! . . . قالت : لحظة! . . قالت : عمراً . . .

لم تعد الطفلة . . طفلة . . صارت امرأة فى لحظة! جلست «موناليزا» تبسم للفنان . . .

لم أملك ساعتها . . . فرشاة . . . لم أرسم لوحة . . .

همست تسألنى : فيم تفكر؟ . .

لم أتكلم . . . ردت عنى عيناى : لا أعرف ماذا أكتب . . . ماذا أعزف . . . ماذا أرسم! . .

هل أنظمك قصيداً فى ديوان العشق؟ . . . أم أعزفك «سوناتا» على أوتار القلب؟

أم أرسمك غلافاً لكتاب العمر؟ . .

قالت : أخشى أن يصدق ماهمسوا به . . . .

عنى؟ . . .

قالت : لعبتك الكلمة! لعنتك الكلمة!

وماذا أفعل والكلمة قدرى؟ . .

من صدرى أخرجت الزهرة دامية الأوراق . . . عادت امرأتى طفلة . . . مدت يدها تطلب زهرتها . . .

رجعت للصفحات المسطورة . . . عادت حرفاً . . . صارت جزءاً من كلمة . . . خفقت بعضا من نبضة . . رنت فى الصرخة نبرة . . .

أيقظنى الصوت! . .

وعند السور الرابض فوق الموج . . . كان صديقى . . .

يجلس مكدود النظرة . . .

ـ هل كانت قصتك مجرد حلم؟ . . .

قلت . . . تعرف أن الحلم قصير . . .

قال . . . والعمر الراكض أقصر . . .

كلمات من دفتر قديم :

إذا كان ذنبى أن حبك سيدى

فكل ليالى العاشقين ذنوبى

أتوب إلى ربى وإنى لمسرة . .

يسامحنى ربى إليك أتوب

لقاء!

ولد الربيع مبتسراً فى موسم الأمطار! أشرق ذات يوم من مشيمة فجر شتوى بارد . . . تسللت خيوط الدفء خجلى ولكنها ملحة . . تصر على اجتياز المساحات الثلجية . . . تصاعدت أنفاسها بخاراً يتكثف على أوراق الشجر وزجاج النوافذ . . .

وقفت خلف النافذة أرمق الدرب . . . لعلى أراك . .

لم أدر سر القطرات المنزلقة أمام عينى . . . أكان المطر . . . أم هى الدموع . . . .

جفت كل الدموع فى ليل سابق! . . . ولم تجف الأمطار . . .

ربما لأنى أحب الأمطار . . .

أحببتها يوم زفت إلىّ البشرى! انتظرت طويلاً . . . وكابدت الغربة والملل وعاشرت الشجن تحرق جوفى بكل جفاف البرارى والقفار . . . وبت أحلم بالمطر . . .

أحلم بالقطر يبلل جوانح الشوق . . ويروى غلة الظمأ . . . وينبت فى قلب الصخر زهرة بيضاء . . .

. . . وحين استيقظت من الحلم على هسيس المطر . . . كنتِ وردتى . . .

كنتِ هناك . . عبر الأسوار . . . حيث لاتطالك أيدى الأمنيات . . . نجمة . . . مثل نجمة تخفق فى ليلة لم يبد فيها القمر . . . أو كنت ومضة . . . ومضة قنديل فى حضن شرفة مسورة . . . يلوح للتائه عن بعد فيهديه المسير . .

تضوعت الأمطار بعطرك وتلألأت ببريق عينيكى . . . فخلعت عنى رداء الخريف القاتم وجريت أغتسل تحت الدفق الربيعى وملأت كفى وشربت حتى الثمالة . . . .

نفضت عنى قطرات المطر . . . نثرتها على أوراق الشجر . . وبللت بها شفاه الورد . . .

سقطت فى حجرى وردة . . . رفعتها إلى شفتىّ . . .

وكان الرحيق هو البشرى! . . . .

وفى المساء جلست أنتظر . . . أمسكت قلمى وكتبت قصيدة شعر . . .

نظمت من الأيام والذكريات والأشواق عقداً أحيط به نحرك . . . تلثم حباته ما سال فى مجرى العبير فى صدرك . . .

أمسك العقد بين أصابعى . . . وأنتظر . . . فى شرفتى المطلة على درب الفيروز . . . حيث خطرتى ذات مساء صيفى بلا موعد . . .

عبر الأسوار أراك . . . مغلولة اليدين . . . مقيدة الخطى . . .
أسيرة سجان أعمى . . . لكن القلب يطير . . .

يخفق بجناحيّ عصفور . . . يفلت من ربق الأسوار . . .

يرف فوق غمام الأحزان . . .

ينزع ريش الأوهام . . . يغتسل بنور الشمس . .

يتجدد كالعنقاء . . . وفوق السور الأزرق يهبط . . .

يقفز نحوى . . .

فى صدرى يخفق عصفور آخر . . .

هكذا كتب القدر المسطور . . .

سوف يكون . . .

رغم الأسوار . . . رغم فيافى البعد . . .

سوف يكون . .

يولد من رحم الإعصار . . طفل ربيع . . .

يحبو فى مرج الصيف . . .

يقبل فى نفس الموعد . . . ذات مساء . . . ليكون لقاء .

كلمات من دفتر قديم :

الحب فى الأرض بعض من تخيلنا

لو لم نجده عليها لاخترعناه

«نزار قبانى»

سؤال ..

إلى أين؟ . . .

لم يكن سؤالاً! كان خوفاً! أحسست به يرتجف فى نبرات الصوت التى تتظاهر بالشجاعة!

حاولت أن أكون بسيطاً . . . رتبت على الخصلة الرعناء التى تغالب نسمات الليل العابثة . . . وهمست . . .

لا تلق بالاً إلى الغد . . . فهو بظهر الغيب . . واليوم لنا!

أشاحت بوجهها غير راضية وكررت السؤال . . . فرفعت قناع الرجل البسيط ووضعت قناع الفيلسوف!

. . . سؤالك يحمل فى ثناياه الجواب!

وحالة «التساؤل» تضم فى أحشائها جنين التمرد . . . الذى

يولد كائناً من كائنات الغضب والعذاب! وينمو حتى ينفجر على نفسه . . ويتناثر شظايا تحرق كل مرافئ الأمان!

. . . الأمـان توأم السكون ! السكون توأم العـدم . . . وأنا لا أبحث عن عدم . . . أبحث عن حياة . . .

التمعت عيناها ببريق الغضب المشحـون . . . رفضت منطق الفيلسوف ! . . خلعت قناع الفيلسوف! بحثت فى جعبتى القديمة . . . عثرت على قناع العاشق . . . وضعته . . . عاودتنى ذكرى الليالى المترعة بالنشوة وتنسمت عطر الشرفات الصيفية . . . خرج صوتى مترعاً . . .

ـ لاتسألينى! فالسؤال مصرع العاشقين! دعينا نواصل الحلم بأحلام جديدة ، والحالم لا يسأل . . . لايؤرقه غير خوف اليقظة! الحالم لايبحث عن غاية ولايثير فضوله أن يعرف نهاية الطريق . . .

سؤال العاشق مضيعة للوقت . . . والوقت ضنين . . . فلا تضيعى مسرات البداية بظلال النهاية البعيدة . . . أعرف مثلك أن الحب تسرى عليه قوانين البشر . . . يولد . . . فيكبر . . . فيشيب! ومثلما لايدفن الإنسان لحظات العنفوان فى خوف من الليل القادم . . . علينا ألا نقتل «الآن» بالتساؤل عما يأتى بعده . . .

مدت يدها ونزعت قناع العاشق وألقت به على الطريق تتقاذفه رياح الشتاء تحت قطرات المطر!

مددت يدى أبحث . . . لم أجد فى الجعبة أقنعة أخرى! . . همست تلح فى إصرار :

لامفر من الحقيقة! . . .

أدركت أن اللحظة التى طاردتنى طويلاً قد أمسكت بى . . . استجمعت كل ما بقى لدى من شجاعة . . . ونظرت إليها . . .

ـ تسألين إلى أين؟ . . ومن أين لى أن أعرف؟ . .

إننى ياعزيزتى أفتقد بداهة الرجل البسيط . . ولا أمتلك حكمة الفلاسفة ولم أعد أجيد بلاغة العاشقين . . . وليس عندى ما أجيب به على سؤالك . . . صمتت . . . شردت عيناها . . . تابعت سرباً من طيور المساء الراجعة إلى أعشاشها . . . وهمست : هذه الطيور تعرف إجابة السؤال . .

أجل ياعزيزتى . . ولكنها لاتسأل!

كلمات من يوميات قديمة :

قد تخدع بعض الناس كل الوقت

وقد تخدع كل الناس بعض الوقت

ولكنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت!

«حكمة غربية»

حين تأتى !

قيل له . . حين تأتى . . . ستعطيك زهرة . . .

. . . كان الموعد متوافقاً مع غياب الشمس . . .

على الرصيف كان يقف رغم هطول المطر . . . كان الرذاذ المتساقط ينقش مياه المرفأ بآلاف النجوم المرتعشة . . .

وتناهت من بعد قريب صفارة الوصول . . .

كل الصفارات تتشابه . . . الرحيل والوصول . . . نحن فقط نترجمها فى الأعماق . . . نغنى عند الوصول ونبكى عند الرحيل . . .

وفى المرتين نعزف موسيقانا . . .

لم يتلمس بعد تناغم الأصوات فى داخله . . . كان ينتظر . . . .

كتلة ضباب تتقدم على شفاه المرفأ . . .

تتحرك ببطء . . تتكاثف مع الضباب وبخار الماء ثم تنفصل عن كتلة الرماد المحمر فى خط الأفق . . . تعبرها شمس تغرب لآخر مرة . . .

الثقل فى الأقدام المبتلة يرسل تياراً من برودة ثلجية تتسرب إلى الساقين فيشعر بانفصالهما عنه . . . وعيناه مصلوبتان على الكتلة السوداء تخب فى عباب مضطرب . . .

آه . . .

كم من مرة وقف وانتظر . . . حتى دخلت كل السفن . . . وهبط منها كل المسافرين . .

ولم تعطه واحدة منهم زهرة . . .

لعل زهرة الليلك هى التى تندر فى مواسم السفر . . .

قيل له . . . حين تأتى لا بد أن يصحبها برق . . .

السماء رمادية ولكنها تخلو من ندفة سحاب . . . حتى تساءل من أين يهطل المطر . . .

السماء لم تكن حبلى بغمام يمطر . . .

لعلها قطرات الندى تأتى بلا موعد . . .! والطبيعة كثيراً ما تتمرد على السائد والمحتوم . . . الطبيعة قد لاتكون هى نفسها . . .

دبت الحركة فى الموجودات حوله . . .

تسارعت أقدام كثيرة تهتك الصمت . . . وسرى هسيس المطر . . . تمسخه فى لحظات أصوات بشرية تنادى وتصرخ وتضحك وتتشاجر . .

وقد بدأ الدرج الممدود على الرصيف يهتز . . . ومن جوف . . الباخرة تتسرب الوجوه . . . ترى أين هى ؟

عرف أن القانون يحتم مجيئها على متن هذه الناقلة العملاقة . . .

دارت عيناه . . . تتفحصان كل من يعبر الدرج . . قاطعت رؤيته مشاهد اللقاءات الحميمة ودموع الأشواق الطويلة . . .

تنفس بعمق لتتسرب إلى أنفه رائحة الزهرة . . .

تقترب مرتدية معطفاً رفعت ياقته حتى أخفى نصف الوجه . . .

فى عروة المعطف كانت زهرة الليلك . . أقبلت . . . خفق قلبه حتى اختنق . .

مرت به . . . لم تعطه الزهرة . . .

التفت خلفها . . . فلم يرها . . .

انتابه اليأس . . . فالموعد هو الأخير . . . وبعده سيرحل إلى مرافئ أخرى . . . فى أرض مجهولة .

كلمات من دفتر قديم :

الشجن . . . دمعة نهاية تنحدر

على خدود الذكريات لترسم

بسمة حنين لماض لايعود .

قبيل الفجر

لم يكن قد مضى على ذهابه للفراش ساعة أو بعض ساعة حين أيقظه رنين الهاتف . . . فتساءل فى ضيق عن الطالب . . كان صديقه . .

ـ كنت فى الساحل الشمالى اليوم . . رحلة عمل . . .

ـ وماذا بعد؟ . .

ـ ألم تقل لى أن «س» قد سافرت إلى أسوان مع أبيها ؟ . .

ـ أجل وقد طلبتنى على الهاتف منذ ساعات قليلة . . .

ـ أسف . . لقد رأيتها اليوم فى قرية الشمال . . . ولم تكن وحدها ! . . .

. . . بقى واجماً لدقائق . . . وقد أحس بألم من نوع غريب فى أحشائه . . كأن شيئا قد انفجر بداخلها هو يعلم جيدا أن صديقه

لايمكن أن يكذبه القول . . . فهذ الصديق بالذات ليس . . . أقرب أصدقائه إليه بل هو قبل هذا رجل مستقيم الشخصية لايميل إلى الهذر ولغو القول . .

لم يستمر الجدل داخله طويلاً . . . وبعد دقائق كان فى سيارته . . . يخرج من المدينة إلى الصحراء . . . العلامات الضوئية على الطريق الأسود تومض متوهجة فى عينيه . . والنعاس المنكسر فى جفنه ينبض على إيقاعها . . . وقدمه تضغط لا إرادياً على مغذى الوقود . . . فتمرق السيارة كالسهم دون أن يحس بأى فارق فى السرعة . . كان يريد أن يطير . . أن يصل إلى القرية قبل بزوغ الفجر . . .

«لقد توافقت المعلومات فمن أسابيع جاءه من يهمس فى أذنه بإشارات عن علاقة تتواطد بينها وبين مدير شركة السياحة التى تعمل بها . . . وعبر عن احتقاره لما سمعه بإلقائه على مسامعها مع ضحكة استبعاد ساخر . . . الآن فقط يتذكر كيف تورد وجهها للحظة ثم امتقع وكيف ارتعدت أرنبة أنفها . . تصور ساعتها أنها انفعالات غضب واستنكار . . . الآن يوقن أنها علامات ارتباك وبغته . . هو ليس رجلاً مريضاً بالشك ولولا أن مكالمة الليلة جاءته من هذا الصديق بالذات لواصل نومه فى استرخاء تام . . . ولكن . . عليه الآن أن يعرف عن يقين» .

استعرض مع امتداد الطريق قصته معها بكل التفاصيل . . . وضعها أمامه فى مرآة السيارة وراح يحاسبها يذكرها بما فعله من أجلها . . . وكيف رعاها ووقف بقوة إلى جانبها فى كل الأزمات

التى مرت بها . . . ويعيد على مسامعها كل ما قالته وهمست فى أذنه حتى تصور أنه امتلكها كما لم يمتلك رجل امرأة من قبل . . . ثم نحاها من عينيه وراح يجتر كل ما قرأه أو سمعه عن طبيعة حواء المتقلبة وأهواءها وجحودها استشاط غضباً وزاد ضغطه على قدمه اليمنى حتى سمع زئير المحرك . . .

سأل نفسه وهو يدير مقود السيارة إلى اليسار تاركاً مشارف الإسكندرية إلى يمينه . وكانت الغلالة البنفسجية الشفافة تطرح نفسها على المساحة الظاهرة من الربوة المطلة على البحر . .

. . . ولم قبيل الفجر بالذات ؟ يمكنك أن تصل فى أى وقت . . رد على نفسه . . كلا . . . فربما كانت تخطط للسفر إلى أسوان من الإسكندرية فجراً لتثبت وجودها هناك . . .

وواصل السؤال . . وماذا تفعل إذا واجهتها؟ . . أنت لاترتبط بها بغير رباط المشاعر والعواطف . . وواصل الرد . . . أريد أن أعرف فقط لأحرر نفسى .

ووصل قبيل الفجر . . . ورابط بسيارته عند مدخل القرية . . . وجلس ينتظر . . . لم يعرف أن النوم قد غلبه إلا حين لمسته تلك اليد فى كتفه تهزه ليستيقظ . . .

فتح عينيه . . . وحملق فى الوجه الذى انحنى فوقه . . . وتسمر ذاهلا . . . بينما هتف الآخر . .

ـ ماذا أتى بك إلى هنا؟

ـ انتظر . . . ألم تتصل بى من القاهرة فى منتصف ليلة الأمس؟

ـ كيف وأنت تعلم أنى هنا منذ عشرة أيام ولمدة شهر كامل . . .

ـ إذا لم تكن أنت . . فمن يكون؟ . .

ـ ربما أراد أحدهم أن يداعبك . . .

ـ ألم تر «س» هنا؟ . . .

ـ بل سمعتها . . . اتصلت بى هاتفياً من أسوان تشكوك إلىّ . . . ويبدو لى أنها محقة . .

. . . فى طريقهما إلى الفندق . . . كان يفكر جديا فى أنه لو نام ساعتين ثم سافر . . فإن يستطيع أن يصل إلى أسوان قبل الفجر .

كلمات من دفتر قديم :

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه

وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا

«قيس بن الملوح»

أرانى!

أرانى وقد ولدت فجر ذاك اليوم فأخطو على جسر الاكتشاف . . . وتبهر عيناى أضواء نجم قديم انفجر فى السديم منذ قرون ولكنه مازال يومض . . . نبضاً فى رحم الكون يتهيأ لميلاد جديد . .

وأرانى نائماً فى حضن ليلة قمراء . . . تهدهدنى بين ذراعىّ فجر مطل . . . تصطبغ جبهته بدم قرمزى يكرس المولود الذى يدرج مدارج الشباب المبكر . . .

وأرانى قد لهثت جرياً وتصببت عرقاً وأنا أصعد التل . . . تمتلئ الأوردة والشرايين بدم رجولة طافحة يمكنها أن تحملنى إلى القمة وعلى كاهلى أثقل الأحجار . . .

أرانى أتشبث بخيوط شمس غاربة تتألق فى بوتقة الانصهار عند حافة الغسق . . . يلتقى الساخن بالبارد . . . فيتجمد ويتقلص

ويحول الجمرات إلى كرات من رماد مبتل . . .

وأرى الدائرة مفتوحة . . . لها طرفان . . . لم تغلق بعد . . وكنت أحلم بصيرورة دائماً من خلال السباحة فى منحنى الدائرة . . حيث تلتحم النهاية الآفلة ببداية وليدة . . . .

أخشى ما أخشاه أن تتوقف الحركة المحتومة ولاتغلق الدائرة . . . فحتما سأسقط من أحد طرفيها . . .

. . . أنا مصاب « بفوبيا » الخوف من السقوط . . .

أحيانا أطل من شرفتى العالية . . . وما إن نظرت إلى أسفل حتى هاجمنى الدوار واخترقتنى رغبة مجنونة فى القفز إلى الشارع . . . وفى اللحظة الأخيرة أتشبث بالسور الحديدى وأتراجع إلى الخلف حتى أسقط على ظهرى . . . أكره الدوار والغثيان والأمور الوسط والبين بين . . .

أنشد عالماً من الصدق . . وإن شوه الصدق كل الوجوه . . .

أرنو إلى زمن قد لايأتى . . . ولكنه يتحقق فى احتمالات الإمكان . . . لحظة شرود منفصلة عن حكم الميقات . . .

زمن يحتفل بالذكرى السنوية لانقراض أخر المخلوقات الطيبة التى أذابت شمع الأجنحة تحت الشمس فدقت أعناقها . . .

أضع صورتى فى إطار على الحافة الرخامية للمدفأة فى الشتاء . . وأسقط عليها حزمة من ضوء أزرق . . ولكنى لا أنظر إليها . . . فأنا أعرف الملامح وأملها وأحيانا أكرهها . . .

وغداً سأقيم حفلاً لإزاحة الستار عن تحفتى الكبرى . . . أرى من الآن صوراً مستقبلية لنظرات العيون تلمع بالحسد . . . وناهدات الصدور وهى تنفث غلاً . . . أرى ابتسامة وحيدة تصفق وتطرب وتذرف دمع الانبهار . . .

ابتسامتك أنت . . . حين أزيح الستار . . وتطل عيناكى لتضىء الغبش الليلى . . .

أرانى هناك معلقاً بين جفنيك . . . متوسداً وجنتيك . . .

أرانى فى عينيك بارقاً من نور . . .

أرانى فيك . . . . أرانى أنت . . .

أنظر فى المرآة . . . أرى الدائرة . . . يتحرك طرفاها . . . يقتربان . . . يلتقيان . . . تنغلق الدائرة . . . وأغلق عينى .

كلمات من دفتر قديم :

لتعرف كيف تحب يجب أن تعرف كيف تكره . . .

فكراهية الشر . . تعلمنا حب الخير . . .

غربة

اليوم عدت وحدى! . . .

لم يكن لدى متاع . . . وانمحت من ساعتى كل الأرقام . . . وانكسرت العقارب . . .

فقط . . كان المكان! تعرفينه . . .

نفس الشرفة . . . نفس البحر . . . ونفس الركن الذى شهد الأمسيات وأبلى خيوطها فجراً . . . وأبهتها عند طلوع النهار . . .

هنا تحول الزمن إلى مكان . . . تشكلت الألوان على جدار اللحظة . . . فحولتها إلى أثر من حجر منقوش وأبقتها وشماً لا تراه إلا عيناى! . . . وكانت اللحظة قد أصبحت سفراً ملوناً بألوان الذكريات . . .

بنت الذكريات مدينتها فى القلب وجعلت للمدينة باباً يربض

أمامه أبو الهول بسؤاله الملغز وأسراره المطلسمة . . . ولأنى صاحب السؤال فقط خطوت . . . ابتسم لى أبو الهول وألقى السؤال . . . وهو يأمر بفتح الأبواب . .

ولكنى نسيت الجواب . . .

لم أستطع دخول المدينة . . . ورحلت . . . كان الطريق طويلاً . . وكنت حافى القدمين . . . أميال ، وأميال ، من الصخر المسنون . . . أنشبت مخالبها فى لحمى . . . فكتبت بالدم سطور غربتى . . .

أفلتت الغربة من حساب الزمن فلم تنته تجسدت «مكانا» فأصبحت هى العالم . . . أجوبه من أطرافه الأربع لأجده كلما فررت منه! يئست من البحث عن نهاية كما نسيت البداية فدرت مع الدائرة . . . واستسلمت لقدرى . . .

رسمنى قدرى فارساً لعابرى السبيل! باركنى . . . ولمس بسيفه كتفى وأمرنى :

ـ امض وإياك والسؤال عن المصير! . .

لم أسأل . . ولم يكن رحيلى بحثاً عن مصير . . .

كان بحثاً عن رفقة . . . عن دفء مخبوء فى قلب وحيد . . .

عن زهرة تشق الصخر فى عرض الطريق . . .

والطريق يصعد إلى ذروة يغطيها الثلج وتعصف بها الرياح . . . ولم يعد على كتفى دثار . . . وتمزق الثوب القديم . .

رثت غلالات الصيف وموسم الأمطار يحلق فى الأفق . . . وقريباً يأتى . . . ولم يعد لدىّ ما أخفى به عريى . . .

لم يبق غير الهزيمة . . . فعابر السبيل لايملك سيفاً . . . والملاح الشارد أضاع سفينة! . . .

واليوم عدت وحدى! . . أكفكف الدمع وألعق الجراح . . .

عدت ولاشيء بكفى غير قبض الريح . . . ونثار من غبار السفر .

لم تكونى هناك . . .

فقط كان المكان . . .

بالنظرة واللمسة يضج بالذكرى . . . يمور بالحياة . . . يعود الزمن ليسكنه . . .

تعود اللحظة نبضاً فى الجماد . . .

أراكى وأرى النجمات فى عينيك . . . وأسمعك ، فى القبرة والشحرور والكروان . . .

أستعيد الرفقة الدافئة . . .

لا أعبأ بالوهم . . . لا أخشى السراب . . .

أشعر تماما أننى لم أعد وحيدا . . . فالمكان «معى» . . .

والمكان حقيقة . . .

وحيث يكون للمسافر مكان . . . لاتكون غربة .

كلمات من دفتر قديم :

الشجاعة بلا ذكـاء : حماقة

والذكاء بلا شجاعة : حكمة

«كونفو شيوس»

شجن

فى الصـيف كـان الدرب ظليـلاً . . . رغم شـمس حـزيران المتوهجة . . . وبقع الضوء والظل تترامى . . متناثرة على الممشى حيث كنا نسير بخطوات الدفء النشوانة . . . . إيقاعات الخطو تغنى . . . ترقص . . . تهزج على أوتار القيثار المشدود . . .

وكان العطر يتماوج فى نسمات كسول . . . يتثاقل . . . يتلكأ . . . يتكثف بنضج الزهور التى تفتحت فى ربيع سابق . . .

لهثت الأحاسيس الخجلى . . . تقافز نبضها . . . تدفقت فى الشرايين رحيقاً من شهد وردى ارتشفناه قطرة قطرة . . . جرعناه سيلاً . . . فاض من أشداقنا . . . بلل صدورنا . . . تبخر عليها . . . صعد رذاذا لزجاً . . وتضبب فى سماء تموز . . . وسماء تموز لم تكن زرقاء . . .

. . . كانت ترتدى غلالة مموهة . . . . ترقد بها وسنانة على حافة البحر . . .

وبحر تموز لم يكن أزرق! . . .

كان يغلى بتيارات العمق فيلفظ رماله وأعشابه الطحلبية الحمراء . . .

لم يكن وحده! العالم كله كان يفور . . . كان يضج . . . ويعزف موسيقاه على آلات النفخ النحاسية يضبطها إيقاع أفريقى . . . أمازونى . . .

كان اللحن «خلاسيّا» . . . كصرخة بحار زنجى يغنى لغادة شقراء فى حانة منسية على شاطئ «الكاريبى» . . .

كان موسماً للحب الساخن والأحلام المرسومة وشماً على السواعد والصدور . . . كان حياة . . .

تحبها . . تكرهها . . . تتناغم معها . . . أو تتنافر . . . لا فرق هناك لأنك تحياها . . .

أحدثك أيها الهامس فى صدرى وقد أمسى «أيلول» يلملم آخر أنفاس الصيف . . . تاركاً على سور الشرفة زهرة ذابلة الحواف وسلة كرم خاوية . . . وكأس به قطرة . . . وقنديل به بقايا شمعة . . . وقيثار وحيد الوتر . . .

وغصة «تشرين» تلمس شغافك . . .

لمسة من مخمل رمادى تهدهد مكمن دمع فى الأحداق . . .

أصبحت الأهازيج الصيفية الصاخبة . . . مجرد رجع للصدى . . . وقطرات الندى الدافئة ذرات ثلجية . . .

أضحت لقاءات الليالى بعضا من ذكريات . . . سطوراً من

حكايا بلل الدمع وريقاتها فانطمست الحروف وبهتت الكلمات . . .

أقبل موسم البحث عن «سلوان» . . .

. . . لانسيان ! . . .

البحر عاد أزرق . . . والسماء خلعت غلالات الضباب الحريرية . .

لم يبق إلا الرماد . . . عيداناً من الظلال تتقاطع على الدرب مع خيوط المغيب . .

ورعشة خطوات وحيدة تدرج على الشرفة المهجورة . . .

ورجفة دمع تهفو إلى لقاء . . .

ودغدغة الحنين فى قلب مرهق الصبوات . . .

. . . وعلى الوتر الباقى فى القيثار . . . تتلمس أصابعى أصداء الأغنية القديمة . . . يغمرنى الحزن . . .

أغص بالأحزان . . .

أبحث عن عود ثقاب . . .

أشعل العود الأخير . . . أوقد بقايا الشمعة فى القنديل . . .

أمسح بيدى تلك الدمعة حتى لاتطفئ ذبالة المصباح . . .

كلمات من دفتر قديم :

الحقيقة تبدأ بحلم . . . والحلم يبدأ

بعيون مغمضة . . . لهذا فنحن نحلم

بالحقيقة ولانراها!

طيف!

اصفر الضوء للحظة ثم احمرّ . . .

توقفت السيارة على حافة الخط الأبيض . . . وانساب عبر التقاطع رتل من السيارات يتدافع أمام ناظريه . . .

مال برأسه نحو زوجته دون أن ينظر إليها وهمهم بضيق :

ـ إشارة طويلة! لن نلحق بموعدنا . . .

وبنفس اللهجة الروتينية التى ظل يسمعها طوال زواجهما . . . همست!

ـ لاتقلق . . . سينتظروننا! . .

لم يعقب وشغل نفسه بتأمل المارة المهرولين فى ممر المشاة . . وفجأة تصلب فى مكانه وقد انتبهت كل حواسه . . . أنه هو . . .

ـ من ؟ . . . قالت الزوجة ! . . .

ـ لا أحدا! . . أجاب هو . . . خشى أن تعاود السؤال ولكنها لم يهتم . . . راح يتابع من رآه على الضفة الأخرى من الطريق . . . ولمحة وهو يدخل المقهى الكبير على ناحية التقاطع . . . تملكته رغبة قهرية فى اللحاق به! . . . التفت لزوجته . . .

ـ أسرعى قبل النور الأخضر . . . وقودى أنت السيارة واذهبى إليهم . . . وسألحق بكم قبل موعد العشاء . . .

وقبل أن تجد الفرصة للاحتجاج أو التساؤل فتح الباب المجاور وانزلق إلى الطريق! انبثق النور الأخضر . . . وتعالت خلفها صرخات أجهزة التنبيه من السيارات التى وقفت خلفها . . . كانت قد أتمت الوصول إلى مقعد القيادة . . . وانطلقت وهى تفرغ ضيقها وغيظها فى كلمات لم يسمعها أحد . . .

. . . عند النافذة العريضة للمقهى وجده هناك . . . وحده . . .

اقترب منه حتى وقف عند حافة المائدة . . .

ـ أخيراً وجدتك! . . .

رفع الآخر رأسه وشمله بنظرة استغراب باردة :

ـ عفواً . . . أتعرفنى؟ . .

ـ لعلك لم تنس . . . أنا رفيق رحلتك بالقطار ذلك اليوم منذ خمسة أعوام . .

ـ آسف . . أراك تخلط بينى وبين شخص يشبهنى . . .

ـ كلا . . . أنت هو . . . صورتك المنطبعة فى عينى لم تتغير . . .

قال مهونا عليه : ربما ولكنى لا أتذكرا

جلس أمامه وراح يحدثه بتدفق حار :

ـ إذاً فسأذكرك! . . كنا نجلس متجاورين وجاء مفتش القطار . . واكتشفت ساعتها أن حافظتى قد ضاعت منى وبها تذكرة الركوب وكل ما معى من نقود . . .

ـ تحدث أمثال هذه المفارقات لأناس كثيرين . . .

ـ ولكنك تكرمت يومها فدفعت عنى قيمة التذكرة والغرامة . . . .

ـ إذا فقد أتيت عملاً طيبا فى حياتى المليئة بالأخطاء! . . . ولكنى مع ذلك . . لا أذكرا

ـ محال . . . فقد أعطيتك بطاقتى . . وظللنا نتجاذب الحديث طوال السفر! . .

ـ سيدى : هناك دليل لاينقض على أنك تحسبنى شخصاً آخر . . . فأنا لا أحب السفر بالقطار ولم أركبه منذ كنت طفلاً! . .

أحس بالدماء تصعد إلى رأسه . . . واحتار بين إحساس بالخجل وإحساس آخر أكثر مرارة يوهمه بأن الرجل يسخر منه ليذله . . . أو يعبث به . . .

أخرج من جيبه النقود وألقاها على المائدة . . .

ـ أنا لا أشك لحظة فى قوة ذاكرتى! وأيا كانت أسباب إنكارك فهاهى نقودك ولست مدينا لك بشىء . .

ـ أنت رجل مخبول! . .

ـ وأنت صفيق . . .

ـ هاهى نقودك . . .

أزاح الآخر النقود بحركة احتقار . . . فسقطت على الأرض وفقد هو أعصابه . . . وهناك سألته زوجته : ماذا حدث لعينك . . .

رفض أن يجيب . . . ولم تكرر هى السؤال .

كلمات من دفتر قديم :

تصدق دموع المرأة إذا أحبت . . .

ويكذب الرجل إذا أقسم لها . .

أنه يصدق هذه الدموع . . .

كـــذبة

نظرت إلى العلبة الملفوفة بالورق المزركش . . . ثم إلى الرسالة المرفقة . . . وابتسمت لنفسها . . . فقد ربحت الرهان . . .

كان الرهان بينها وبين صديقتها بالأمس . . . حين هرعت إليها تسرد لها وقائع اللقاء العاصف بينها وبينه . . .

ـ لقد عرف كل شيء! . . لا أعرف من أخبره! . . توسلت إليه كى يخبرنى ولكنه رفض واتهمنى بأنى أحاول أن أهرب من المواجهة إلى مسالك فرعية .

ـ لعل الحق معه . . فليس المهم فعلاً من قال . . ولكن . . ماذا قيل! . .

ـ وهكذا كان . . . لقد عرف . . .

ـ كان غاضباً؟ . .

ـ كلا . . . ما به لم يكن غضباً . . . كان شيئاً رهيباً لا أجد كلمة تعبر عن حقيقته . . . كان انسحاقاً . . . أو اشتعالاً بلا

لهب . . . أو نزيفاً لكل مظاهر الحياة . . أو لعله كل ذلك فى حالة واحدة . . . ربما خيل إليك أنه قد انفجر ثائراً أو حطم الاقتراح أو صب على جام غضبه ولعناته! . .

ـ أو لم يفعل؟ . .

ـ ظل مكانه صامتاً . . . شاحباً . . لاينبىء عما بداخله غير شعاع من بريق ينبعث من عينيه كومضة برق تخترق السحب الجاثمة فى ليلة شتاء عاصفة . . . . وطفقت أسأله عما به . . . وأتدفق أمامه قلقاً ولهفة . . . وظل يرمقنى بتلك النظرة التى تغوص فى صدرى كالسكين . . . وأخيرا . . تكلم . . . خرج صوته برنينه الأجوف كمن يتحدث من بئر لا قرار له : «لماذا كذبت علىّ؟» . . . ولحظتها سقطت كل أحجار الدنيا فى أعماقى . . أدركت ألا جدوى من الإنكار . . . وأنه قد عرف . . . فقد كان ما عرفه مسطوراً فى نظراته . . . مرتجفاً مع ذبذبات صوته . . .

ـ وماذا فعلت؟ . . .

ـ وماذا كان بوسعى أن أفعل؟ . . . انهرت باكية . . . كنت أعرف أن دموعى تجرده من كل أسلحته وتحول لحظات قوته إلى استسلام كامل . . . ولكنه لم يعبأ . . . ظل ينظر إلىّ بنفس الطريقة . . لم تزد فى نظرته إلا التماعات ساخرة حولت دموعى إلى قطرات من ثلج . . . جربت حيلتى الأخرى فثرت عليه وصارحته بأن ما كان فى الماضى قبل أن أعرفه لايخصه فى شىء ولا يحق له أن يحاسبنى عليه . . .

ـ منطق لامراء فيه . . . ولا بد أنه أنحمه؟ . .

ـ زادت قسوة السخرية فى نظرته وقال : «لا يخصنى ولا يحق لى

مطالبتك بحساب عنه . . . ولكن لابد أن أعرفه . . . ومنك . . . لأن ماضيكى جزء منك مثل حاضرك . . . ومن حقى أن أعرفك كاملة . . . فلست أحب نصفك دون النصف الآخر» . . .

– وهذا أيضاً منطق! . .

ولكنى نهضت غاضبة وتركته بعد أن أعلنته أننى أرفض شكه واعتبره إهانة لاتغتفر . .

ـ لقد أخطأت . . . وأعتقد أنك قد فقدته؟! .

ـ بل فعلت الصواب . . . فأنا أعرف قدر حبه لى . . . وأعرف أسلوبه فى استرضائى . . . وسترين . . . سيرسل لى هديه . . ورسالة اعتذار . . . .

أمام صديقتها وبنشوة الانتصار . . . فضت غلاف العلبة . . . ومظروف الرسالة . . . أما العلبة فقد كانت تحوى وردة حمراء . . . وفى الرسالة . . . كلمات قليلة :

«كيف احمرت الوردة؟ . . . وداعاً . . .» .

عرفت فيما بعد أن الورد كان كله أبيض اللون . . . وأحب البلبل وردة . . . أشفق عليها من الزبول فى ليل الشتاء البارد فضمها بين جناحيه . . . فغرست أشواكها فى لحمه حتى امتصت كل دمائه لتدفئها . . . وفى الصباح . . . كانت الوردة حمراء . . . وكان البلبل صريعاً . . .! . . . هكذا احمرت الوردة . . . . ومات الحب .

كلمات من دفتر قديم :

« لا تقاتل معارك الآخرين وغريمك ينتظر أمام بيتك» .

«كونفوشيوس»

عصفور!

رآه لأول مرة ذات مساء! . .

كان الكون قد غرق فى التماعة الرماد الخادعة! . . فبدأ كشبح ألفته الأمواج . . . من جوف أسطورة منسية غرقت فى لجة قديمة! . . .

توقف عند السور الحجرى وراح يحملق فيه . . . كان يتراقص عند مرمى الأمواج . . . طيفاً شفافاً . . . كان يرى من خلاله مياه البحر تتلألأ وتنثر حولها دوائر الفضة المتوترة تحت أشعة الشمس الغاربة . . .

فرك عينيه (ربما كان وهماً . . . أو شيئاً كالسراب) . . . أحس بحتمية نفسية تدفعه لأن يقترب . . . فاقترب . . . ولكنه جرى هارباً . . . لم يختف . . . كان طيفه يعدو فوق الرمال المبتلة ويترك آثار أقدامه الحافية لتتجمع فيها مياه الموجة الراجعة . . .

. . . ربما خيل إليه . . . فالوحدة . . والأحزان . . . تخلق أنواعاً من المرئيات قد «لاتتحقق» ولكنها «ترى»! . .

عاد من حيث أتى . . . وانكب على ليلته يراوغ ذكرياته ويحاول أن يدفنها في عمق الفراغ . . . وبينما كان يمارس لعبته سمع الدقات . . . قريبه . . . على زجاج الشرفة المجاورة . . . والتفت . . . كانتا هناك . . .

عينان تلمعان فى الظلمة الساجية كقطعتى ماس تبرقان على اتساع محجريهما بنظرة ماجنة . . . وتحتهما ذلك الأنف الأفطس الذى ضاع من ذاكرته كما ضاعت كل ملامح الماضى - وتحته كانت شفتان منفرجتان عن ابتسامة! لا . . بل ضحكة تملأ الأشداق . . . وإيماءة من رأس نحيل يعلوه ويحيطه شعر غزير . . .

هرع للأبواب يفتحها . . . لكن الطيف كان يجرى . . . ويشير له ليتبعه . . .

على الرمال مرة أخرى . . . وفى ضوء قمر مكتمل . . . راح يواصل رقصته . . . وفى يده هذه المرة مزمار ينفخ فيه . . .

تخرج تلك الأنغام لتحمله إلى بلد بعيد . . . بلد كان كثيرا ما يراود أحلامه حين كان طفلاً . . . (ساحرات الغابة القصيرات يلبسن طراطير مطرزة بالنجوم ويحملن وجوه أطفال مكتنزة تضحك فى براءة حنون) . . .

ارتجف بنشوة عارمة تخللت مسام جسده فاستلقى مخدراً على الرمال وراح يتابع بلهفة عرض شبحه الراقص . . . وتناهت إلى سمعه نبرات أمه تقص عليه حكايا الأميرات والشطار وتمد بيدها الباردة على جبينه الملتهب . . .

- نم يا ولدى كى تلحق بالعرس الموعود ! . . .

تكسرت الرؤى تحت أجفانه الطبقة وانتظمت أنفاسه . . . و . . . فى الصباح أيقظته أشعة شمس تدغدغ عينيه . . . ففتحهما ليرى الشاطئ كما كان . . . خالياً . . تصفر فى فضائه ريح خريفية عابثة . . . .

تلفت يبحث عنه . . . ولكنه لم يكن هناك . . . . ولأول وهلة تصور أنه كان يحلم . . .

فكرة الحلم تبدو بعيدة . . . بل كانت مستحيلة . . . فقد وجد على الرمال بجواره ذلك المزمار . . . مدّ أصابع ترعشها الرهبة . . . لمس الجسم الأسطوانى النحيل . . . كان الندى أو رذاذ الموج يبلله . . وبرفق أمسك به . . . تأمله . . . أداره بين أصابعه . . . ثم رفعه إلى شفتيه . . .

تنفس بعمق ثم رد زفيره إلى المزمار . . . لم يسمع شيئاً . . .

ظل طوال يومه يحاول أن ينطق المزمار . . . ولم يفلح . . .

نقط حين مالت الشمس ثم سقطت خلف الأفق . . . خرجت نغمة طويلة حزينة . . . طفرت الدموع من عينيه . . .

وغشيت عينيه غلالة تترجرج . . .

ومن خلالها عاد الشبح . . . يتقافز فوق الأمواج . . . ويمد إليه يديه . . .

ألقى نحوه بالمزمار . . . فالتقطه . . . وضعه بين شفتيه . . . تحولتا إلى منقار . . . رفرف بزراعيه . . . تحولتا الى جناحين . . . وعلى كتفه حط العصفور . . .

عـــائدة

من نافذة الصدفة جاءت . . . أطلت . . . فى أحضانها يبزغ قمر صيفى . . . على جبينها تبرق نجمات فجرية . . . وفى شعرها يتدفق نهر ليلى . .

همس الصوت بداخلى : ها قد عادت . . !

أسكتُ الصوت بنبرة احتجاج . . .

ـ العـــائد كى يعـــود . . . يجب أولاً أن يذهب! . . وهى لم تذهب . . . لم تكن قبل اللحظة!

ونظرت إليها! . . . كأنى أنظر للمرة الألف . . . كأنى أبحرت بزورقى فى هذا البحر طوال العمر . . .

عيناها بحر حنان صاخب! وفى أعماقها طفل يبحث عن صَدَفة . . . يغوص حتى القاع . . . ينبش فى رمل الأغوار . . . والصدفة يحملها التيار . . .

لؤلؤتى سر فى صدر الأقدار! ضاعت منى يوما حين لهوت بقطعة زجاج هشه!

لم أعرف أن اللؤلؤ يسكن فى الأعـماق . . . وأن الشطئان المهجورة لاتحمل غير بقايا العشاق!

والعشق تميمة أيامى! . . .

أيامى طافت بكل فيافى الأرض المجهولة عاشت كل حكايا الأمس . . . رشفت كل كئوس الصبر . . غزلت كل شباك الصيد . . . لكنها لم تعثر يوماً على لؤلؤتى المفقودة . .

. . . هاقد عادت . . .

همس الصوت! . .

عزفت فى الآفاق البعيدة أوتاره قيثار أرعن . . . من كل زوايا الكون هتفت أصوات «الكورال» .

هاقد عادت . . . هاقد عادت . . .

حدثنى الهاتف فى صدرى : لمن هى عائدة؟

عائدة لى! . .

صرخت بها فترددت الأصداء كطبول الحرب! . .

ليست حرباً يا أسرتى! . . ليست إلا ضربات القلب! تخفق . . . تخلق ألف حياة . . . تنبت فى الأرض العطشى عوداً من ريحان أخضر . . . يزهر فى ظلمات الليل . . . يثمر لؤلؤة بيضاء . . .

يشرق فوق البحر نهار . . . نشهده عند السور الأزرق . . . نملأ بالكفين شعاع الشمس الخجلى ذات صباح . . . نغسل وجهينا . . .

لكن السفن المارة تطلق صفارات الرحيل . . . يفزعنى الصوت . . . أدفن رأسى فى خصلات الشعر . . .

تهمس فى أذنى : سأعود . . .

أمسك بصحيفتى الصباحية . . . أقرأ طالعى . . .

نجوم اليوم تقول . . . اليوم فراق . . .

اليوم رحيل قد سطر فى الأفلاك . . .

وغداً تتوارى لؤلؤتك فى صدفة . . . الصدفة ترحل . . . تغتسل بماء الأعماق ثم تعود . . . تطرحها الأمواج بين يديك . . . تسألك كلمات السر . . . أعرفها . . . .

أهمس فى أذن البحر . . . بالاسم المسحور . . . ينهزم الطلسم . . .

أكتب على الرمال طالعى . . .

أنا أنتظر . . . وهى عائدة!

كلمات من يوميات قديمة :

يا لائمى فى هواه والهوى قدر
لو شفك الوجد لم تعزل ولم تلم

«أحمد شوقى»

وعد!

أكان وعداً؟ . . .

أم كان بعضاً من سراب؟ . .

يوهم الصادى نفسه بأن الصحراء قد هطلت بها الأمطار فأينعت قفارها وارتوت رمالها من قطر الحياة فاخضرت وأنبتت زهورها . . . وتلوح له جنة موعودة تبدى مفاتنها وتدعو الظامئ كى يروى غلته . . . والجائع كى يقيم أوده . . . والتائه الرحال كى يلقى عصاه . . . ويجرى الواهم إلى جنته . . .

تتدفق فى شرايينه دماء الأمل البارق فى المدى . . . فينضو عنه أكفان يأسه ليولد من جديد ويحبو بقوة الميلاد إلى درب الفردوس الماثل عند الأفق! . .

. . . يحبو ولا يصل . . . يدعو ولا يجاب . . . وتظل الرحلة بلا

نهاية . . . كحكاية المهد تبدأ فى ليلة وتتكرر كل ليلة . . . أو كحكايا شهرزاد . . . تغزل من الخيوط خيوطا لتتصل عبر ألف ليلة . . . أو ألف عام . . . تنسج أحلام السندباد وأساطير العشاق والندمان فى ليالى بغداد . . .

تلك كانت رحلتى . . . وكنت أنت الميعاد .

كأنما عشت عمرى أبحث عنك فى صحراء . . . حين يشق بى المسير وأجثو على رمال الجمر وأكاد أسلم رأسى لصدر الأقدار الصخرية وأغمض عينىّ على ملح الانتظار . . . تبرق بين أهدابى لمعة السراب . . .

وكنت أنت هناك . . . جنة الوهم الجميل . . .

جئت فى لحظة اليأس على محفة ليل قدرى أفلت من حساب الزمن الصارم وأنبت لى فى قلب الفجر زنبقة بيضاء . . .

رأيتها ذات صباح . . . تتوسد حلمى عند السور . . . فاختفت الصحراء . . .

. . . أينعت الواحة حولى وتدفق فيها نهر ضياء . . . ألقيت بحلمى المكدود على صدرك . . . هدهت سنين العمر الضائع على مرجك . . .

وبين يديك نثرت نجومى المخبوءة فى صدرى . . . شذر من قلب لم يعرف يوماً ـ قبل اليوم ـ كيف يكون العشق مصيراً . . . قدراً أو سطراً يختم كل سطور العمر! .

مددت يدى . . . فتحت كفى . . . طلبت من العرافة أن تقرأ . . .

قالت كفك لايقرأ . . . لكنى أقرأ عينيك . . .

فى قلب النظرة تقطن صاحبة الوعد . . . قد تعطى الجنة لو شاءت . . أو تعطى الوهم . . .

أغمض عينيك طويلاً واحلم بالفردوس!

أطبقت جنونى . . . وكنت هناك . . . .

أعرف تلك البسمة على شفتيك . . . أقرأ فيها كل نبوءات العرافة . . .

واسمع تلك الكلمات . . .

ـ كم من أعوامك عشت طريد الفردوس المفقود؟ . .

قلت ثلاثاً . . .

قالت تكذب . . .

قلت كثيراً . . .

قالت تهرب . . .

قلت لعلى لا أعرف!

قالت تعرف . . .

. . . .

هى لم تعرف أن وعوداً قد بذلت للظامئ والجائع والتائه فى البيداء . . . ليس لكى تتحقق . . . ولكن . . . فقط لكى يواصل المسير . .

كلمات من دفتر قديم :

سألنى : المرأة متى تحب؟

أجبته : حين لاتجد ما تفعله!

ظـــل

رأيته ولم أره . . . وكان حتماً أن أراه . . .

فقد كان توأم تلك اللحظة حين دقت أجراس الموعد والتقينا على الأعتاب . . .

كان معك . . . كان خلفك . . . كان ظلك! . .

. . . كان أول ما رأيت . . . ولم أر فيه سواكِ . .

خلف كتفك كان هناك . . يرنو إلىّ بنظرة ساخرة . . . يتحدى . . . يلتقى بسؤال . . .

كنت أعرف السؤال . . . وأخشى الجواب! فالأمل يبقى دائماً حين تظل الأسئلة بلا إجابات!

واليأس يطل حين نعرف النهايات! . . .

لكن سؤال الظل كان يبحث عن بداية . . . ربما لأنه يعرف ما هو آت . . . وربما لأنه يخطو على أرض بلا مسافات . . . وربما . . . وربما . . .

يقين الحب يساوى كل الاحتمالات! . . والظل تخالطه الأشياء . . .

لم أعرف أيكما الظل وأيكما القابض على كنه الجوهر والمتحول فى الأشياء . . .

لم أسأل . . . ولعلى أفعل بعد فوات الوقت . . . فأخطو فوق خطوط الحذر الحمراء . . .

وتلك خطوط تعرفنى . . . تعرف خطوة أقدامى . . . تعشقها . . . تدمنها . . .

وأنا أرسف فى الأغلال العمياء . . . أعشق حتى عشاقى . . . لا أندم لحظة . . . لا أنظر خلفى . . . لا أبكى على اللبن المسكوب . . . لا أرثى فردوسى الضائع . . .

أقبل كل الأخطار . . . أدفع جزية ما أختار . . .

أشرع صدرى للأقدار . . . أحمل تبعة أخطائى . . .

قد تلدغنى لدغة غدر . . . أو تلفحنى هبة نار . . . قد يرهقنى طول السير . .

لكنى لا أطلب عفواً . . . لا أتلو ورد استغفارى . . .

لن أسأل ظلك ماذا يقول!! فأنا أعرف!

أعرف أن الماضى يكبح خطو الحاضر . . . يلقى فوق الدرب بكل الأحجار . . .

يرمى ظلال الليل القاتم فوق شعاع الشمس القادم . . . ذات نهار .

يرجو لو يغمض عينىّ . . .

أو يسدل حول القلب ستار . . .

لكنى أركل كل الأحجار . . . وأمدُ يدى لأمزق كل الأستار . . .

لن أعطى ظلكِ عيناى . . .

هما لايريان سوى عينك . . . وعيناكى لبست اعينا الظل . . .
عيناكى طريق . . . أرحل عبره صوب المرفأ . .

والمرفأ يحتضن الزورق . . . يغسله تحت الأمطار . . يرسم فوق الدفة نجمة . . . يرشق بالصارى زهرة . . . يكسر فوق شراعينا قنينة عطر . . . ولنبحر . . .

فالبحر حفى بالعشاق! . . . يحمل فوق الموج سفينا للأشواق . . . يرحل حتى يرسو فى الجذر العذراء . . .

لكن البحر وليد يقتات على الأحلام . . . يوسدها صدر الغد . . . ينسيها خوف الأنواء . . .

البحر يقين يكره ظل الشك . . .

يكره أى ظلال . . . يعطى سر شواطئه المسحورة للنسيان . . .

فلننسى . . .

فلننسى حكايا الأمس . . .

ولنخطو نحو المرفأ . . . ننتظر الإبحار .

كلمات من دفتر قديم :

التفاحة كشفت لإسحق نيوتن الجاذبية الأرضية

وكشفت لآدم جاذبية من نوع آخر

فماهى؟

حوار

كأن عيون الدهر قد أغفت لحظة من زمان . .! وكأن الزمن نفسه قد أراح رأسه إلى صدر ساعاته الوسنانة . .

كانت غفلة . . . أو كانت حلماً تجسد فى غفوة . . .

أعرف أننى لم أكن نائماً . . . ولكننى ربما كنت أحلم . . . أو لعلى لم أفهم لغة ما رأت عيناى . . . فقد رأيتها . . . كانت هناك . . .

عند منحنى الطريق الدائر حول البحر . . . حيث تراجعت السنون فى ومضة برق لم تجهضها شمس النهار . . . وانعكست ألوان الشفق الوردية على الجبين الأسمر . . . لتمتزج الحنطة الذهبية بذوب شراب الورد القرمزى . . . لون عرفته واصطبغت به سنوات فجرى القديم . . .

اختلجت فى الصدر رفة جناح . . . وخفقة جرح لم تقو عليه الأيام . . .

مازال الجرح طفلاً يلهو بقطرات الدم ويرسم بها على جدار القلب سهما يخترق الشغاف . . . وقادتنى الخطى كأسير حرب لايملك الطريق . . . ولا يختار الاتجاه . . .

كنت أخشى الاقتراب! فاقتربت! . . .

صار البعد خطوة . . . ربما لم تكن كافية لتنتزعها من رحلة شاردة فى عمق البحر . . . .

لم تلتفت حتى همست باسمها . . . أيقظها صوتى المرتجف بذبذبات طالما تهدهت فى أذنيها . . . فدارت نحوى وهى تهمس باسمى قبل أن ترانى . . .

(روت شهرزاد فى ليلة من ألف ليلة : وحين نظرت إليه ونظر إليها أورثته النظرة ألف حسرة) . .

وما كان بى حين نظرت إلىّ تلك الحسرة . . . فلم تكن النظرة نظرة . . .

كانت ذلك النبع الأخضر الذى اشتعل ربيعاً فأنضح مواسم العشق فى بيادر الصبا . . . وصهر السهام على حروف اسمها ليدمغ بميسمها جبين العمر . . .

وعلى جبينى قرأت الحروف . . . فأفتر ثغرها بكرزتيه عن بسمة حواء المنتشية . . . وزغردت نبرات صوتها :

ـ كيف جمحت بك خيول الأيام؟ . .

ـ وكيف اعتقلت أنت السنين؟ . .

ـ لعلك ترانى بعيون الأمس البعيد !

ـ وهل ترينني أنت بنفس العيون؟ . .

ـ عرفت صوتك أولاً . . .

ـ كأنك لم ترينى! . .

ـ أنا لا أرى سواك . . . وأعرف يوماً بعد يوم . . . بل أعرف كل يوم . . ماذا أضاف الزمن إليك . . . لذا أراك كما أنت اليوم . . . وكأن الدهر لم يفصل بيننا وكأنى لم أبرح تلك اللحظة التى جمعتنا . . . هذا أنا . . . فماذا عنك؟ . .

. . . نكست رأسى ولم أجد ما أقول . . .

تبدت حمرة الشفق . . . وأطل علينا المساء . . . وانسكبت خضرة عينيها على رماد البحر . . . .

وتماوجت سمرة الذهب على جبينها الذى بلله رذاذ الزبد . . .

ومددت يدى أمسح قطرات الملح . . .

مست أناملى خصلات الكستناء تعابثها الريح . . . فألقيت عليها السؤال . . .

ـ لعلك حلم! . .

ـ وهل كنت يوماً غير ذاك؟ . . .

ـ كأنك صنيعة وهمى؟ . . .

– وبغير وهمك لا أكون . . .

أثقل الكرى جفنا شهريار . . . فأطبق عينيه على الحلم . . . حيث واصلت شهر زاد أوهامها المحكية . . .

كلمات من دفتر قديم :

يكذب الرجل أحيانا ليتخلص من مأزق

وتكذب المرأة دائما لكى تقع فى نفس المأزق .

عطر!

نسينا لحظة! . . .

أفلت منا الحذر! . . . أرحنا رأسينا إلى كتف الحلم الوسنان . . . لم نسمع دقة الساعة . . . لم نر الضوء الأحمر! . . .

عللتنا الأمانى فقفزنا عبر الأسوار إلى الأرض المحرمة . . . لم نقرأ تلك الكلمات المسطورة فوق الأبواب «لايدخلها إلا الغافلون» .

وقد غفونا . . . أطبقنا الجفون على رؤيا عصر لم يولد . . . ونبوءة أسفار عاقر . . . لم تنجب يوماً أو ليلة . . . لم تكتب سطراً أو كلمة . . .

غنينا لزمان الصم . . . ورسمنا لوحات للعميان!

ونسينا لحظة . . .

لا أكثر أبداً من لحظة . . . واللحظة كانت حبلى بالسنوات!

كانت تختزل المأساة . . . تنفجر اللحظة ذات مساء . . . فتضىء الليل بألوان الفجر الموعود . . . تطوينا غلالات الوهم الراقص حول المصباح . . .

فى الرقصة نرحل عبر الآفاق! نهفو لزمان آخر . . . نرنو لصباح . . .

ننسى الأغلال المرصودة . . . نغفل عن سر الطلسم . . . نتعلق بجناح العنقاء . . . ونحلق . . .

نعلو فوق غمام الأيام الموءودة . . . فوق دروب العمر الحجرية! نسبح فى الأجواز المسحورة . . . .

نبنى قصراً للأشواق نسكنه لحظة . . .

لا أكثر أبداً من لحظة . . .

فالقصر مجرد أرجوحة . . . تترنح على جرف سحابة . . . تتعلق بشعاع غارب . . . والشمس تلملم دفء اليوم . . . تسقط قصر الأوهام . . . كالنورس يهبط من حالق . . . يتردى بجناح مكسور . . . يرتطم بقارب . . .

القارب يبحر فى لجة ليل . . .

والليل جزيرة نسيان . . . مرفأها يغرق فى تيه اللحظة . . .

فى نفس اللحظة . . . يطلع ذاك الفجر . . . كمنار مكسور المرآة . .

لايعكس ضوءاً . . . لايهدى القارب . . .

فالفجر لأننا فى غفلة ـ فجر كاذب . .

وتمر اللحظة . . . تفجؤنا شمس مشنوقة! تغرس فى أعيننا اليقظة نعرف أن اللحظة كانت لحظة . . .

لا أكثر أبداً من لحظة . . .

كانت غنوة . . . أو بعض سراب! . . .

وسنقنع من وهم غنيمتنا بذيول إياب . . .

فلنجمع أشلاء اللحظة . . .

قطعة حلم بجوار القطعة . . .

ولنصنع منها تذكاراً . . . كزهور جافة نودعها صفحات كتاب . . .

وحين نغرق فى بئر الوحدة . . . . نسترجع ذات اللحظة . . .

ذات الزهرة . . .

نتنسم عطر الأحلام . . . .

نقرأ سطراً . . . من سفر النسيان . . . . يتحدث عن عمر ضاع . . .

فى لحظة . .

كلمات من دفتر قديم:

الحب ما منع الكلام الألسنا

وألذ شكوى عاشقٍ ما أعلنا

« أبو الطيب المتنبى »

رماد!

سرت لا أريد غير بقية الطريق! يصاحبنى احساسى العنيد بأننى قد قطعت الكثير ولم يبق إلا اليسير . . . فكلما تقدمت خطوة ألقيت بنظرة إلى الخلف لأرى الركام . . .

تلال من الأيام والأعوام وأوراق الشجر الذابلة . . . وآثار خطواتى تحفر فى الأرض مسارب الدروب . . .

ودروب الأمس تملؤها أوراق الذكرى . . . عند كل رابية . . . عند كل منحنى . . . رشقت أقدارى ورقة . . . عليها سطر من أسفار العمر . . . والسطر يثرثر عن حلم قد كان . . . قد كان . . .

يضجرنى فعل «الكينونة» إذ يتعثر فى أسمال الماضى . . . يصبح «شحاذاً» يتسول بعض حقيقة . . . يبحث عن مرآة مشروخة! . . ومرايا القلب تغطيها أحزان صماء لا تنبس . . . لاتصدر آهة . . .

تتعلق عيناى بسطرٍ لم يكتب بعد . . . يتحدث عما «سوف يكون» . . .

يبهرنى فعل «الكينونة» إذ يتعلق بالآتى بعد الليل . . . يبدو بشيراً للفجر الموعود . . . يصبح مثل نبوءة . . . تطرحها الشمس على الأكام الجرداء . . تزرع أمنية الأيام النضرة . .

فى اللحظة أدركت الفكرة! . .

الفكرة يا أختاه أن رماد «الفعل» يغطى أميال الأحلام . . . يطمس أشعار الحب بلون مغبر . . . يحيل ربيع العمر شتاء . . . . يتكدس تحت الأقدام . . . يملأ أيدينا . . . يفعم منا الأعين والأفواه . . .

ذلك أن كلينا لم يقو على النسيان . . . فالإنسان مخلوق «يذكر» . . .

مخلوق ينسج حلماً من غزل الماضى . . . كى يوهم نفسه بالميلاد . . . فيدق بجوف الليل الأجراس تبشر . . . ذات نهار . . . أن اليوم وليد!

وعند حلول القيظ أصيلاً تسقط أقنعة الأطفال . . . تسيل القطرات الشمعية من وجه عجوز . . . تمتلئ التجاعيد دموعاً . . . تكشف للواهم أن الوجه الأمرد قشرة . . . تخفى وجهاً حجريا نقشته يداه برموز فى لغة القدماء . . . تلك هى الفكرة . . .

والفكرة تبدو يا أختاه . . . بعضاً من تهويمات حمقاء . . .

فالفارس قد أعياه طريق الشوك . . . فأقعى بجوار أيكة «سدر» .

يبحث عن لحظة ظل . . . أو شربة ماء . . .

أخذته بعد هنيهة سنة من نوم . . .

أغفى وقد راح يطارد بعضاً من أحلام صباه . . .

كان وحيداً . . . لايشاركه فى الأيكة غير رؤاه . . . وهناك رآها . . .

وإليها كان يمد يديه . . .

تلمس وجهاً نورانياً يشرق من حضن الآلام . . .

تسمّع صوتاً يهتف من غمر الصمت . . .

فلتمسح عن مرآتك كل رماد . . . . وأنظر حتى تعرف قسماتك . . .

راح بكلتا يديه يزيح غبار العمر . . .

وفى المرآة . . . كان هناك . . .

طفلاً قد عاد . . .

طفلاً تلقمه الدنيا . . . قطرات من ضرع رماد!

كلمات من دفتر قديم :

أنام ملء جفونى عن شواردها

ويسهر الخلق جرّاها ويختصموا

«أبو الطيب المتنبى»

سهر!

فى ليلى . . . أكتب أشعارى . . . وأنثر فوق الأوراق بعضاً من حكاياتى! وأغنى وحدى . . .

لكنى أجمع سمّارى . . . وأعد الراح لندمانى! . . . تأتينى الرفقة من فيض الذكرى . . . وتؤنسنى عرائس أحلامى . . . لا أبقى وحدى! . .

أسدل أستارى فى الليل الشاتى! أبحث عن دفء مخبوء . . . أتسمع صوت حفيف الأوراق خارج نافذتى . . . مازالت تدفع عنها الريح المثلوجة . . . تغسلها قطرات الأمطار . . . تجلوها للفجر الآتى . . .

أشعل فى مدفأتى النار . . . أشرد فى وهج الجمرات . . . أسترجع قصة حب منسية . . . تتشكل من شرر اللهب الراقص بعض ملامحها . . . أتذكر وجهاً يتألق فى زمن صباى . . .

وضفيرة شعر تتقافز فوق الأكتاف . . . وحقيبة درس يضغطها ذراعا الحلم إلى الأحضان . . .

يأتى «نيسان»! . . . وأزيح ستار الفصل «المقرور» . . أفتح نافذتى . . . تتسلل . نفثات زهرية . . . أنفاس ربيع مولود . . . اغترف بملء يدىّ وأمسح وجهى . . . أغمض عينىَّ . . . أسترجع تلك اللحظات . . . لحظات القلب الراجف عند اللمسة . . . حين تداعبه نظرات الحب الأول . . .

أرنو للزهرة عند السور . . تتمايل تحت رفيف نسيم ليلى . . . تذكرنى بعينيها . . .

كم كانت تحمل من أحزان . . . من أشجان . . . كم لمعت بالدفق الأخضر كالفيضان . . . كم كان . . . وكان . . .

لو كنا نعلم أن الفصل يتيم لايأتى كل عام . . .

وأن الشمس إذا طلعت لاتخطئ عدّ الأيام . . . لو كنا . . .

اكره فعل الشرط! . . . أفتح أوراق الذكرى . . . يطالعنى نفس الخط . . .

كانت تكتب . . . كانت ترسم . . . كانت تمتنى لو لم يأت فراق . . .

أطوى الأوراق . . .

أودعها أدراج الصيف . . . تتمدد كل الكلمات . . . تستلقى فوق رمال الشط . . . تتعانق ألوان الطيف . . . تنسل لونا لايشبه كل الألوان . . . يتوهج فى «الليل» الصيفىّ . . . ينعكس بريقاً نحاسياً على خد أبنوسى . . . يلتهب بدفء مدارى . . . يغتسل بالأمطار فى خط الاستواء . . .

تتكاثف أبخرة الغاب . . . يتضوع عطراً وحشياً من أجساد تتراقص حول حراب . . . والحلقة تسفر عن تلك السمراء . . . يفتر الثغر المكتنز ببقايا شراب . . . يتساقط فى قطرات أجمعها فى كفىّ . . . أنثرها فوق الصفحات . . .

تروى أحداث الفصل الحار . . . تبترها كلمات من «أيلول» . . .

هاقد أقبل برداء الحزن . . .

تثقله خطوات الذكرى . . كمرابى يجمع ما أعطى . . . .

يجلس صوبى محنى المظهر . . . يرمقنى فى صمت . . . أبادله بعض الكلمات . . .

أساومه كى يمهلنى ليلة . . .

يمهلنى حتى الفجر . . .

أسأله كى نمضى الوقت . . .

ماذا تلعب؟ . . .

يخرج من طى ثيابه أوراق اللعب . . . يعطينى ورقة . . . أقلبها . . أقرأ ما فيها . . .

موعدنا الفجر!

كلمات من دفتر قديم :

الذكريات تعبير مهذب يعنى

فى الغالب «صحيفة سوابق»

حافلة

بالأمس!

بالأمس رأيته!

لم يكن شبحاً من الماضى! . . كان هو نفسه . . . صديقى الذى فقدته من دهر طويل . . .

لا أذكر على وجه الدقة كم مرّ من السنين! . . . أذكر فقط ذلك اليوم الذى التقينا فيه لآخر مرة . .

كنت أجلس على المقهى العتيد الذى شهد سنوات الرفقة والصداقة ومنابع الطموح . . .

جاء يسرع الخطى لاهثاً . . . وبادرنى وأنفاسه المبهورة تلفح وجهى . . .

ـ أخيراً وجدتها! . . .

كانت عيناه تلمعان ببريق لم أعهده فيهما من قبل! . . .

ـ من هى؟ . .

رق صوته وارتجفت نبراته وبدا كما لو كان يغنى . . .

ـ حلم العمر ياصديقى! لن أصفها لك لأنى لا أجد غير تلك الأوصاف التى لاكتها الألسن وبرمت بها الأقلام واستهلكتها قصائد الشعراء . . . وكلها لاتنبئ عن الحقيقة . . . . وراح يومها يتحدث عنها طوال ساعات . . . كان قلبه يرقص على لسانه ويتأرجح بين شفتيه متى أشفقت عليه!

كنت أعرف مدى ما يتمتع به من بساطة وما يغلف نظرته للحياة من براءة . . . وخشيت أن يندفع وراء مشاعره العفوية فيرتطم بصخر الواقع الذى يملأ الطريق دون أن يراه فهمست له أن يعيش التجربة بخطو وئيد ويتحسس الدرب حذراً متمهلاً . . .

وفوجئت به يبتسم فى وجهى . . . وهو يرد بثقة :

ـ قلبى يصدقنى دائماً . . . وسأتبعه! . . . غداً أتقدم إليها . . .

ساورنى الفزع! توسلت إليه أن يتأنى . . . أن يفكر . . . أن يعطينا فرصة لكى نراها ونبحث ظروفها ونتعرف إلى ماضيها . . . فأجابنى غير مكترث . . .

ـ أخطبها أولاً ثم أترك لكم بعدها أن تنقبوا وتبحثوا كما يحلو لكم! . .

ومضى . . .

انتظرناه فى اليوم التالى . . . ثم فى اليوم الثالث . . . ثم أيام أخرى كثيرة . .

لم يأت . . . ولم نسمع عنه . . .

اندفعنا نبحث عنه . . . واكتشفنا أنه قد ترك مسكنه . . .

واستقال من عمله . . . واختفى . . . عشرون عاماً كاملة . . . نسيناه ثم نسينا أنفسنا حتى فوجئت به بالأمس . .

أمام أحد الفنادق الكبرى . حيث كنت مدعوا لحفل زفاف ـ توقفت سيارة فارهة وهبط منها . . . ولولا أن هتف بى منادياً لما عرفته . . .

رأيت رجلاً فخماً بين أصابعه المرصعة بخواتم الماس يرقد سيجار كوبىّ هائل . . . ومعه امرأة لاتقل فخامة . . . وشابين فارعين . . .

عانقنى ثم قدمنى لهم كصديق قديم . . . وقدمهم لى . . .

ـ زوجتى . . . حلم العمر الذى حدثتك عنه آخر مرة . . .

غمز لى بركن عينه واستطرد مكملاً . . .

ـ ابنها الأكبر . . مهندس . . وهذا الأصغر . . . طبيب . . .

ـ أولادك؟ . .

ـ كلا . . أنهما ولداها من زواج سابق . . .

بغمزة أخرى انحنى ليهمس فى أذنى . . .

ـ كنت تريد منى أن أتروى وأفكر وأنتظر تحرياتكم . . . ما رأيك؟ . .

ضحكة غليظة مازالت تدق أذنىّ منذ الأمس . . .

. . . آه . . . ياله من صديق فقدناه بسبب خشيتنا عليه! . .

ويالنا من أذكياء . . . ومحنكين . . . وعباقرة! .

كلمات من دفتر قديم :

الماضى كالكرة . . . يبتعد عنك

بقدر ما تركله!

سفر!

لم تكن رحلته الأولى إلى باريس . . . ولم يكن هناك ماينبئ عن جديد . . . . فقد أصبح افتتانه بالساحرة العجوز التى لاتهرم أبدا مجرد عادة! . . .

أجل! تعود أن يأتى ويترك نفسه للمدينة . . . تأخذ يده وتقوده إلى حيث تريد . . . ولم يسأل مرة : إلى أين . . . فكل خطوة تؤدى إلى متعة وتفتح بابا من أبواب الأسرار . . .

وهكذا ترك نفسه هذه المرة أيضا وبحكم العادة . . .

كان المطر يتصل فى رذاذ مستمر . . . دفقات ربيعية تربت بالدفء والشجن على صدره المكدود . . . لتنسيه كل ما ترك وراءه فى الوطن! . . . وقد ترك أشياء كثيرة ولكنه لم يترك الوطن . . كان يحمله معه أنى تسير به قدماه . . . وهاهو يتأمل الوجوه على رصيف الشانزليزيه . . حيث تعود أن يعثر دائماً برفيق من مواطنيه . . . وجوه كثيرة شرقية السمات . . . ولكنه من باب

التحرز ينتظر أن يسمع اللغة . . واللهجة . . . وبينما تدور عيناه . . تكملان رحلة البحث توقفتا بهزة المفاجأة ليراها . . . .

وأحس لأول مرة بكلمة المستحيل تتجسد أمامه . . . كائناً من لحم ودم . . . .

إنها هى . . . لاتوجد ذرة شك واحدة! . . . ولكن . . . .

الأمر يتعدى المفاجأة والدهشة ليقفز إلى تخوم الجنون واللامنطق!

ثلاثون عاماً . . . طويلة . . . حافلة . . . مرت ويتمنى أن يراها مرة أخرى . . . حاول بكل ما تتيحه قدرة البشر . . . جرب كل الوسائل . . . وسار على كل الطرق . . . وجرى خلف كل الرموز التى يحفل بها قانون الاحتمالات! . . . لم ينجح . . .

وحين أقعده اليأس اخترقه ببارق ضعيف من أمل . . . فقد بقيت الصدفة . . .

ولكن الصدفة تأخرت ثلاثين عاما حتى تجسدت أمامه على رصيف مقهى فى باريس . . .

هاهى ماثلة أمامه . . . تماما كما كانت آخر مرة . . . .

نفس اللهيب الأخضر يشتعل فى سمرة الحنطة! والرأس المرفوع . . . والجبين الأشم! . . . وحبتاكرز تفتران عن بسمة تتأرجح بين الخجل والسخرية . . . بلا شعرة بيضاء فى الرأس . . . بلا ثنية عمر فى الجفن أو فى العنق . . . بلا خط فى الجبين . . . ووجد نفسه يهمس مرة أخرى : محال! . .

وكان الحال ببساطة أن تكون هى . . . فى نفس سنها القديم . . . حتى جاءه نفس الصوت القديم أيضا . . . يهزج من خلفه : كأنك ترانى . . . أليس كذلك؟

التفت فى دورة كاملة . . . وكانت هى أيضا . . . فقط بلا جنون . . . بلا مستحيل . . .

التجعدات الدقيقة فى ركنى العينين . . . وتهدلات خفيفة فى الرقبة . . . وجيبان تحت العينين يحولان البريق المشتعل . . . إلى رماد أخضر . . .

الصوت فقط بقى كما هو . . .

أعاد النظر إلى المستحيل وارتجت فى داخله دقات قلبه كطبول حرب تنذر ببدء الهجوم الأخير . . . وفى لحظة . . . انشق الليل الباريسى عن برقه الهام . . .

همس بصوت لم يكن صوته :

ـ ابنتك؟! . .

ـ أجل . . . . وأبوها يجرى اتصالا هاتفياً وسيحضر حالاً . . . ربما أعرفه بك . . . فى لحظات سريعة . . حكت له قصة الصدفة! . . . الابنة ـ المستحيل ـ مصابة بمرض عضال وجاءا بها خلف الأمل الأخير! . .

وفى الصباح . . .

كان على متن الطائرة العائدة للوطن . . . لم يتحمل أن يفقدها مرتين!

كلمات من دفتر قديم :

المعرفة الحقيقية : أن تعرف
وتتغير! . . . فالجاهل وحده من
لايتغير مهما عرف .

«جوستاف لوبون»

براءة!

سقط الظل على صفحة الجريدة فأحس أنه لم يعد وحده . . .

كان قد سار طويلاً فى ممرات الحديقة الرحبة باحثاً عن ركن قصى يختلى فيه بجريدته . . . حتى وجده أخيراً فى المساحة المكشوفة الجرداء حيث لاتقترب أقدام الأطفال وخطوات الكبار المتسكعين . . .

أخرج جريدته . . . وانتقى ذلك المقعد الخشبى المستلقى تحت شمس شتوية دافئة . . . وجلس ليقرأ . . .

فى الصفحة الأولى طالعته أخبار الأزمة الأخيرة فى العلاقات الدولية . . . وكان يكره السياسة طواها إلى صفحة الرياضة وراح يستمتع بقراءة ما كتب عن فوز فريقه المفضل بالأمس . . .

وفجأة سقط الظل على الصفحة . . .

رفع رأسه فرآها . . . كانت طفلة! . .

كلا ليست طفلة . . . بل فتاة فى عنفوانها . . . ذهبية الشعر . .

تنعكس الأشعة الشمسية على جبينها فتذوب فى بوتقة تنسكب على الجبين لتلقى فى العينين الواسعتين بشلال من ضياء . . . .

مشدودة نظرتها الودودة إلى ابتسامة على شفتيها . . . فى تعبير لم يره من قبل فى وجه امرأة . . .

أجلس ليست امرأة! فالبسمة بسمة طفلة لم تتجاوز عامها العاشر بعد . . . وتلك البسمة التى تدعوك للمشاركة البريئة فى مؤامرة صغيرة . . . تدعمها نظرة يلمع فيها مكر طفولى خالص (لاتخبر أحداً بالسر) . . .

ولابد أن ابتسامته هو كانت رداً . . . فقد أتاه صوتها يزغرد :

ـ معذرة . . هل أضايقك؟

ووجد نفسه يهتف بحرارة من ينفى تهمة :

ـ إطلاقاً . . .

أشارت بإيماءة خجلى إلى الجريدة فى يده . . .

ـ هل يمكننى أن أتصفح جريدتك لحظة؟ . .

قدم لها الجريدة وكان يتوسل أن تأخذ معها قلبه . . . تناولتها وشكرته بنظرة عميقة أشعلت فى داخله تلك الانفجارات الخفيفة لألعاب الأطفال فى الأعياد غرقت رأسها فى الصفحات المفرودة . . . ولم تبد حركة . . . تسمرت طويلاً وتجمد كل شىء حولها . . اختفت تغاريد الطيور . . وتلاشت صيحات الأطفال . . . حتى ضوضاء السيارات فى الشارع القريب لم تبق منها حتى الصدى . . .

وخلف سحابة داكنة توارت الشمس . . . وسرت فى الجو قشعريرة باردة . . . سقطت الجريدة من يديها . . . ومن عيونها انحدرت دمعتان . . . رفعت إليها أصابعها المرتجفة لتمسحها ثم استدارت وولت مسرعة . . .

أفاق من دهشته الملتاعة بعد لحظة . . . وانحنى بسرعة يلتقط الجريدة . . .

بلهفة فتح نفس الصفحة . . . وراح يدور بعينيه باحثاً عن أى شىء يمكنه أن يبكى تلك الطفلة . . . وانهمك ينسج من كل سطر قصة . . . يعايشها حتى تبكيه . . . وفجأة سقط الظل مرة أخرى . . . فهب يواجهها . . لم تكن هى . . . كانت أخرى . . .

تطلب نفس المطلب . . . تفتح نفسه الصفحة . . . تبكى أيضا ثم تولى الأدبار . .

نهض وسار . . يبحث عن سر غامض . . . وكن هناك بين الأشجار . . .

يتضاحكن ويشرن إليه . . . همس لنفسه فى عزاء غاضب . . .

ـ دعابة أطفال . . . لا أكثر . .

كلمات من دفتر قديم :

الحقيقة قد تدمى أحيانا . . . ولكن

جروحها تخرج الدم الفاسد .

سر !

جلس الرجل الشيخ على المقعد الأرجوحة . . . وجلس الفتى الصبى عند قدميه . . .

فى عيون الأول تلمع انعكاسات الأشعة الغاربة . . . وفى عيون الآخر تبرق نجمتا حلم بعيد . . .

قال الصبى . . .

ـ حدثنى عن جنيات البحر . . .

حشا الكهل غليونه ثم أشعله . . وارتعد صوته بلذة قديمة . . .

ـ كن يخطرن فى الليالى المقمرة . . . عندما يكتمل البدر . . . ترسمهن أولاً على الأمواج أشعة السنا الفضى . . . ثم يتخلقن من غلالات صيفية تتجمع من لقاءات الزبد بالرمال . . . تراهن بغتة على الشاطئ يحملن قيثاراتهن ويعزفن أغنيات الحب . . .

ـ لمن؟

ـ لكل من يراهن! . . .

ـ أكان متاحاً للكل أن يرى؟ . . .

كلا يابنى . . . فالسر ليس مباحاً إلا لمن يملك الرؤيا . . .

ـ ولكنك كنت ترى . . .

ـ الرؤية غير الرؤيا . . .

ـ إذاً فقد كنت تحلم؟! . . .

ـ الحلم أيضاً غير الرؤيا . . .

ـ أكاد لا أفهم ماذا تعنى . . .

ـ الرؤيا يا ولدى أن ترى بقلبك . . . أن تنظر داخلك فترى مالا تنظره عيناك . . . لذلك كنت أراهن وحدى . . .

ـ يدهشنى غرورك! فلست وحدك من يرى بقلبه . . .

ـ ما أراه بقلبى لا يراه غيرى . . .

ـ ها أنت تناقض نفسك فقد قلت منذ هنيهة أن جنيات البحر يتبدين لكل من يراهن . . .

ـ ذلك أن لكلٍ جنياته . . . وجنياتى لسن هن جنياتك إلا إذا كنت أنا هو أنت . . .

ـ أنا لا أرى بعد أى جنيات . . . وقد انتظرت ليالى اكتمال البدر كل شهرت وسهرت حتى الفجر فى كل مرة . . . ولكنى لم أر أياً منهن . . .

ـ لأنك لم تنظر إلى داخلك . . . ولم تر بقلبك! . . .

ـ تقودنى مرة أخرى إلى سفسطة الكهول! . . .

ـ كنت فى شبابى البكر مثلك أبحث بعينى واتهم من يرى بقلبه . . . ولا عليك يا ولدى فما تعيشه من ربيعك يزحم كل مشاعرك ويكدسها فى صدرك فلا تترك ثغره ينفذ منها شعاع الرؤيا . . .

ـ وأنت الآن تزعم أنك صاحب رؤيا؟ إن هى إلا حسرات الماضى وإحباطاته تصنع لك فى خريفك وهماً ترى فيه مالم تستطع أن تحققه . . .

ـ ربما كنت على حق! ولن أجادلك . . . فلم يعد يهمنى أن يكون ما أراه وهماً أو حقيقة . . . فقط يهمنى أن أراه . . . والآن هاقد اكتمل البدر . . . وهاهى شعاعات السنا تتجمع على قمم الأمواج . . . وبعد لحظة . . . يتجمعن عند الشاطئ . . .

راح ينفث دخان الغليون بشراسة . . . وعيناه تبرقان فى مواجهة القمر . . .

ونهض الفتى . . . يضرب الرمال بقدميه . . . ويفكر . . . كيف ينظر الإنسان إلى داخله ؟

كلمات من دفتر قديم :

لو أتت الرياح دائما بما تشتهى

السفن . . . لما عرف الإنسان

فرح الوصول إلى الشاطئ .

اللعبة

اجتمعنا فى شرفة جارنا كعادتنا كل ظهيرة حول رقعة الشطرنج . . . كانت الشرفة متصلة بالشاطئ وكنا جميعاً نقضى إجازة المصيف . . .

اكتشفنا بعد أيام قليلة أن هواية الشطرنج تجمعنا على اختلاف فى قدرة كل منا وإحاطته بفنون اللعبة . . . باستثناء جارنا . . . ذلك الرجل الوقور الذى يتمتع بالإضافة إلى وضعه المرموق كواحد من كبار الرجال المتنفذين فى البلد . . . بسمعة مدوية فى مجال اللعبة . . . وقد راح يتسلى علينا واحداً بعد الآخر . . . ويهزمنا فى الموقعة اليومية بلا رحمة . . . ثم يجلس فى استرخاء وهو يتناول المرطبات ويشكو من افتقاده للذة اللعب لانعدام الندية وحرارة المنافسة . . . وكنا رغم إحساسنا المرير بالغيظ والمهانة نستسلم لمداعباته الثقيلة مفوضين الأمر لله! . . .

حتى كان صباح ذلك اليوم المشهود . . . ونحن مندمجون مع

نقلات المباراة بين «جارنا» وواحد منا . . . انتبهنا فجأة على صوت رفيع له نبرة حادة . . .

ـ نقلة الفرس خاطئة! . .

رفعنا عيوننا جميعاً لنراه . . . طفل غض بلباس البحر لا يتعدى عمره الثانية عشرة . . ولابد أن نظراتنا إليه كانت تقدح بشرور الاستهجان والسخرية . . . لأنه مالبث أن أردف قبل أن ينطق أحدنا . . .

ـ نقل الفرس يعرّى جناح الوزير . . . ولابد أن يؤكل الوزير بالتالى لأن الخصم سيحرك الرخ المحمى بفيله يهدد الملك أو الوزير فغدنا أفواهنا دهشة . . . ونظرنا إلى جارنا الذى اكفهر وجهه وتقلصت ملامحه . . . وهتف بالطفل مؤنباً :

ـ إذا كنت تلعب الشطرنج فلابد أنك تعرف آداب المشاهدة . . . وأهمها ألا يتدخل متفرج فى سير اللعب أو يدلى بأى ملاحظة!

أحنى الطفل رأسه خجلاً وغمغم :

ـ أسف . . . لن أنطق بحرف إذا سمحتم لى بمتابعة اللعب . . .

أومأ جارنا برأسه معطيا له الإذن فى برود . . . ثم استأنف اللعب . . .

وانتهت المباراة كالعادة بفوز «الأستاذ» . . وبر الطفل بعهده ولم ينطق . . حتى بدأ الجار العزيز فى إلقاء مطولته اليومية عن سوء مستوى منافسيه وإحساسه بالملل وانتفاء الندية! . .

تقدم الطفل بابتسامة ساذجة مؤدبة :

ـ أتسمح لى بشرف اللعب معك ياسيدى؟ . . دور واحد فقط! .

ارتفع حاجبا جارنا استهانة واستنكافاً . . . ونظر لنا كأنه يشهدنا على حماقة الطفل . . . وحين لمح على وجوهنا أمارات الترقب والتأييد . . . ضحك بعصبية . . ثم غمغم بلهجة المضطر . . .

ـ لا بأس . . . ولكن كما قلت . . . دور واحد فقط! . .

راح الطفل يعيد ترتيب الرقعة بسرعة . . . ثم بدأت المباراة . .

وبعد خمس دقائق فقط . . . كان جارنا يحملق فى الرقعة بعينين جاحظتين وقد تخشب فى جلسته واحمر وجهه . . . وكان الطفل يهمس وعلى وجهه ابتسامة وانية كابتسامة الچيوكندا :

ـ كش ملك! . .

. . . مات الملك! . . . وظل جارنا مسمراً مكانه . . . بينما نهض الطفل . . . يمد له يده :

ـ شكراً ياعمى! .

لم يصافحه الرجل . . . بل انفجر يأمره بالجلوس . . .

ـ اجلس لنلعب دوراً آخر . . . استهنت بك فلم أركز! . .

استأنفا اللعب . . . سبع أدوار متتالية . . . انتهت كلها بنفس النتيجة . .

. . . وطوال الأيام التالية . . . شهد الشاطئ منظراً لم يبرح ذاكرتى طوال سنوات . . . الطفل يلعب الراكت مع رفاقه . . .

وقريباً يجلس الرجل الوقور أمام رقعة الشطرنج ينتظر بلهفة انتهاء لعبة الراكت . . . وبداية المباراة الأخرى . . .

(تناهت إلى أسماعنا فيما بعد أقاويل عن استقالة جارنا من وظيفته واستقراره بتلك المدينة الشاطئية حيث يحمل كل يوم رقعة وصندوق الشطرنج ويطوف بهما على المقاهى باحثاً عن طفل يلاعبه) .

كلمات من دفتر قديم :

لو أن بينى وبين الناس شعرة
لما انقطعت . . . فإذا شدوا أرخيت
وإذا أرخوا شددت . . .

«معاوية بن أبى سفيان»

فيروز !

. . . ينسكب الصوت فى أذنيه شلالاً من ضياء فينير تلك المساحات المعتمة من الأحزان الجاثمة فى الأعماق . . .

وبداخله اهتزت أوتار أصدأها الصمت الطويل . . .

كانت الترنيمة تأتى من هناك . . . عبر السور الفاصل بين الشرفتين . . .

لم ينتبه قبل اللحظة لوجود من يجاوره . . فقد ظل المسكن خاليا منذ جاء ليقطن تلك البناية الجديدة . . . وظل يعانى من وحشة قاتلة! . .

كل ما حوله فى الحى الجديد هادئ . . . راق . . . نظيف . . . حيث يلمع الصمت . . . وتتهامس الألوان المتجاورة للشجر والزهور والنوافذ الزرقاء . . .

كم كان يأنس إلى المنزل السابق فى حيّه القديم حيث يتعانق

الصخب مع توهج الناس ويلتحم الزحام بمشاعر الألفة والاقتحام . . . لكنها رحلت . . .

فجأة ذات صباح . . . صرخت . . . جاءت سيارة المستشفى . . . ذهبت . . . ولم تعد . . .

وكان لابد وأن يهرب . . . فالبقاء معها ـ بدونها ـ موت يتجدد كل ساعة . . . وبصماتها تغطى كل ما تلمسه يداه . . . وعطرها يعبق فى كل نفس يعيش عليه . . .

رحل إلى حيث لم يألف . . . إلى الصمت اللامع . . . والألوان الهامسة . . . سيظل يراها كما رآها طوال أعوام الحب المترعة . . ولكن من بعيد . . . من هنا . . . سيراها أقرب . . . ربما أبعد . . . ولكن أكثر حياة . . .

تلك الأغنية كانت أهزوجتها المفضلة . . . كلما ارتدت غلالاتها المسائية وتهادت إلى جواره وراحت تدندن له . . .

كانت تعشق هذا الصوت . . . وعلمته أن يبادلها العشق عبره . . . وتلك الكلمات بالذات . . سنرجع ـ خبرنى العندليب . . .

بأن البلابل لما تزل . . . هناك تعيش بأشعارنا . . .

وتساءل فى نفسه . . . أهى الصدفة وحدها؟ . . . ربما فعشاق الصوت كثيرون! . .

لكن الأمر تكرر فى اليوم التالى . . . ثم فى اليوم الثالث . . .

فى نفس الموعد كل يوم . . . مع اختفاء الشمس فى حمرة الشفق . . . يدير الجار نفس الأغنية! . . . لايمكن أن تكون مجرد صدفة! «همس لنفسه وهو يختلس النظر إلى الشرفة المجاورة . . .

لم يحاول عمره أن يتلصص أو يقتحم خصوصية الآخرين . . ولكن الإغراء هذه المرة لايقاوم . . . فهناك فى صدره تضطرم تلك الانفعالات وتكاد تمرضه . .

. . . ومن خلال الستار رآها . . .

كانت عتمة الرماد فى الأفق الغربى تظلل الوجه . . . لكن الرأس . . . والشعر . . . والقوام . . . وطريقة وضع الساق على الساق . . . وارتكازها بخدها على كفها . . . و . . . .

الأغنية ! !

تجمدت أوصاله وأحس بالرعب يختلط بفرح أخرس يهدهد البكاء المكتوم . . .

هرع إلى حارس البناية . . .

ـ من بالشقة المجاورة! . .

ـ لم يقطنها أحد بعد . . .

ـ لكنها بالداخل . . . تجلس فى مدخل الشرفة . خلف الستار . . . وتدير شريط فيروز . . . وحملق الحارس فى وجهه هنيهة . . ثم أمسكه من ذراعه وقاده إلى الرصيف المقابل . . وأشار له بزراعة . .

ـ أترى؟ . . المسكن مغلق . . .

صعد معه إلى المسكن . . فتحه . . . كان خاوياً . . .

هو فى الحقيقة لم ينتقل . . . ولايستطيع ! . . .

الفهـرس

أسامة أنور عكاشة

● من مواليد طنطا بمحافظة الغربية .

● من أسرة تعيش فى مدينة كفر الشيخ .

● حصل على ليسانس الآداب ـ قسم الدراسات النفسية والاجتماعية ، فى جامعة عين شمس .

● كتب القصة القصيرة والرواية ونشر فى الدوريات الأدبية حتى منتصف السبعينات .

● تحول إلى كتابة الدراما للتليفزيون من عام ١٩٧٧ .

● كتب للتليفزيون ٢٦ مسلسلا و٢٠ سهرة ، وللسينما ٥ أفلام .

● صدر للكاتب عدة مؤلفات منها : خارج الدنيا ـ أحلام فى برج بابل ـ مقاطع من أغنية قديمة ـ الاسكندرانى ـ ليالى الحلمية ـ الناس اللى فى الثالث

ودار نهضة مصر أصدرت للمؤلف ثلاثة كتب هى :

أوراق مسافر

تباريح خريفية

همس البحر



قررت أن أكتب فى الرومانسيات ... أترك نفسى لتيار المشاعر يحملنى فى سفرة يومية عبر أجواء اللاشعور والمخبوء ... وما انطوت عليه الجوانح ... وأردت أن أغمس سن القلم فى شغاف القلب ... يستمد مداده من الجراح الحية ... ونسيج الذكريات وأحلام اليقظة وأطلال الآمال الكسيرة وإشراقات الأمانى الوليدة ... مقدراً أننى فى حقيقة الأمر لا أكتب تهويمات تتطاير فى الهواء كدخان ... وإنما أكتب حقائق نفسية تبدو شديدة الخصوصية ولكنها فى واقع الأمر تلمس أوتار القلوب لدى كل قارئ ...

لم أتصور قبلاً أن لدى كل هذا المخزون .. وأن بداخلى هذا الشاعر وإن لم يك مايكتبه شعرا..

اسامة أنور عكاشة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع